دور اليهود في التجارة عبر الصحراء[١] خلال العصر الإسلامي بين الادعاء والحقيقة التاريخية

د. بطل شعبان محمد غرياني

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة

ملخص:

من المعلوم بين المتخصصين في تاريخ الممالك الإسلامية السودانية في أفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الإسلامي (ولا سيما ممالك السودان الغربي) أن التجارة عبر الصحراء شكلت العامل الحاسم في تاريخ تلك الممالك وحضارتها، بل إن هذا النشاط التجاري كان ثمرته انتشار الإسلام بين الشعوب السودانية، بفضل جهود التجار المسلمين، ولا سيما المغاربة الذين ارتادوا الصحراء رفقة القوافل نحو الممالك السودانية حاملين معهم ليس سلعهم فقط، وإنما ثقافاتهم وحضارتهم. وبفضل هذا النشاط التجاري المزدهر عرفت الممالك السودانية ازدهارًا حضاريًا شهدت به المصادر الإسلامية التي بفضلها عرفنا تاريخ تلك الممالك. ورغم ذلك يرى بعض الباحثين أن اليهود نافسوا التجار المسلمين في التجارة عبر الصحراء، بل وسيطروا على زمام تلك التجارة. ولهذا فإن هذا البحث يسعى لمناقشة هذا الموضوع، والبحث في أدلة القائلين بدور اليهود المؤثر في التجارة عبر الصحراء، وتفنيد هذه الأدلة ومناقشتها، وعرض لآراء بعض المؤرخين الغربيين إزاء تلك الأطروحة، وأخيرًا نختتم هذا البحث بالحديث عن حدود مشاركة اليهود في التجارة عبر الصحراء.

الكلمات الدالة: التجارة عبر الصحراء، اليهود، السودان الغربي.

[١] يقصد بالصحراء هنا؛ الصحراء الغربية، والتي تعد جزءًا من الصحراء الكبرى. ومن ثم فإن التجارة عبر الصحراء مصطلح جرى إطلاقه على النشاط التجاري المار بالصحراء الغربية؛ بين البلدان الواقعة شمال هذه الصحراء والبلدان الواقعة إلى الجنوب منها.

The Jewish role in Trans-Saharan trade during the Islamic era

Between claim and historical truth

Abstract:

It is known among specialists in the history of the Sudanese Islamic kingdoms in sub-Saharan Africa during the Islamic era (particularly the kingdoms of western Sudan) that trans-Saharan trade was the decisive factor in the history and civilization of those kingdoms. Rather, this commercial activity was the fruit of the spread of Islam among the Sudanese peoples, thanks to The efforts of Muslim merchants, especially the Moroccans, who traveled to the desert with caravans towards the Sudanese kingdoms, bringing with them not only their goods, but also their cultures and civilization. Thanks to this thriving commercial activity, the Sudanese kingdoms knew a civilized prosperity witnessed by the Islamic sources, thanks to which we know the history of those kingdoms. Despite this, some researchers believe that the Jews competed with Muslim merchants in trade across the desert, and even controlled the reins of that trade. Therefore, this research seeks to discuss this topic, and to examine the evidence of those who claim the influential role of the Jews in the trans-Saharan trade, to refute and discuss this evidence, and to present the views of some Western historians regarding that thesis, and finally we conclude this research by talking about the limits of the participation of the Jews in the trans-Saharan trade.

Key words: Trans-Saharan trade, Jews, Western Sudan.

مقدمة:

لعل من الضرورة بمكان الإشارة بدايةً إلى تأكيد أبجديات منهج البحث التاريخي على عدة قواعد متفق عليها بين المختصين، يجب ألَّا يغفل عنها من يتصدى للكتابة التاريخية؛ منها أنه يجب الاعتماد بشكل رئيس على الوثيقة والنص التاريخي اللذين متى توافرا فثم التأريخ والمناقشة ولا مجال إذًا للتكهن أو لإطلاق العنان للتأويل بعيدًا عن فحوى الوثيقة والنص. أيضًا من أهم قواعد ذلك المنهج ضرورة توافر عدة صفات فيمن يتصدى لعملية التأريخ، منها الحياد والنزاهة والموضوعية فلابد أن يتجرد الباحث أو المؤرخ من كل هوىً في نفسه، ولا يوجه كتاباته لخدمة نوازعه وميوله[١].

لقد صدق العلامة الأستاذ الدكتور **قاسم عبده قاسم** حينما قال "لا يمكن أن نخضع التاريخ للرغبات والأهداف السياسية"[٢]، ردًا على مزاعم اليهود –وهي متشابهة في كل زمانٍ ومكان– التي سعت ولا تزال تسعى لصنع ماضٍ عريق مزعوم وإثبات أن ثمة حضارة وثقافة يهودية متمايزة عاشت وتطورت في القرون الماضية.

ضمن ذات السياق يأتي هذا البحث بعنوان "**دور اليهود في التجارة عبر الصحراء خلال العصر الإسلامي بين الادعاء والحقيقة التاريخية**"؛ ذلك أن المصادر الإسلامية تاريخية[٣]، وجغرافية[٤]، وفقهية[٥]، وتراجم

---

[١] انظر، حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ط٨، ١٩٦٤، ص١٨–٢٠، ٢٢.

[٢] اليهود في مصر، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨.

[٣] على سبيل المثال، يمكن الرجوع إلى، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعة مدينة ليدن، ١٨٨٣؛ العمري: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، مركز زايد للتراث والتاريخ، أبو ظبي، ٢٠٠١؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠؛ محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، دراسة وتعليق آدم بمبا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠١٤؛ عبد الرحمن السعيدي: تاريخ السودان، حققه حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢.

[٤] يمكن الرجوع إلى، الاصطخري: كتاب مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٧؛ البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢؛ الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى به أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٢٠؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠.

[٥] لا سيما، الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٨١.

وطبقات[١]، وأيضًا المصادر المادية ممثلة في تقارير الحفائر الآثارية[٢] التي خرَّجها لنا الباحثون الغربيون؛ تشهد بأن بلاد السودان الغربي[٣] (غربي أفريقيا حاليًا) عرفت حضورًا مكثفًا للتجار المسلمين في أشهر المدن والمراكز التجارية بتلك البلاد؛ مما أسهم في انتشار الإسلام واعتناق أهلها له منذ القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، بفضل جهود التجار المسلمين الذين عبروا الصحراء الكبرى بمشاقها ومخاطرها نحو تلك البلاد، حاملين معهم ليس سلعهم فقط وإنما ثقافتهم وحضارتهم[٤]. ولم ينافس التجار المسلمين أحدٌ في هذا المضمار، ورغم ذلك يطل علينا باحثون يهود وغربيون أغلبهم ينتمي سياسيًا وأيديولوجيًا وعقائديًا للكيان الصهيوني، ويزيفون الوقائع التاريخية ويزعمون أن التجار اليهود وصلوا لبلاد السودان الغربي، بل وأمسكوا بزمام النشاط التجاري هناك، وتركوا آثارًا حضارية في تلك البلاد ليس على الصعيد الاقتصادي فقط وإنما على كافة الأصعدة.

---

[١] مثل، أبو العرب تميم القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس، حققه علي الشابي ونعيم حسن، الدار التونسية للنشر، ط٢، ١٩٨٥؛ المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، حققه عبد القادر الصحراوي، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ط٢، ١٩٨٣، الجزء الرابع؛ الوسياني: سير الوسياني، حققه عمر بن لقمان بو عصبانة، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ٢٠٠٩؛ التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، حققه أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٨٤؛ الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، حققه إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، الجزائر، ١٩٧٤؛ الشماخي: كتاب السير، تحقيق محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، د.ت.

[2] See for example, Mauny, R: Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen-âge, Dakar, 1961; The Question of Ghana, Africa, Vol. 24, No.3, 1954; Robert, D.S: Les Fouilles de Tegdaoust, Journal of African History, vol.11, No .4, 1970; Farias, Paulo Fernando: Arabic Medieval Inscriptions from the Republic of Mali: Epigraphy, Chronicles, and Songhay- Tuareg History, Published for the British Academy by Oxford University Press, New York, 2003; Insoll, Timothy: The Archaeology of Islam in Sub-Saharan Africa, Cambridge University Press, New York, 2003; Trans-Saharan Trade and Islam, In Linehan, Peter and Others (eds): The Medieval World, Rutledge, 2018; Polet, Jean: Pourquoi un « cahier Koumbi Saleh, Afrique. Archeologie et Arts 3 (2004-2005); Nixon, Sam: Trans-Saharan Gold Trade in Pre-Modern Times Available Evidence and Research Agendas, In: Leitch, Mattingly and Others (Editors): Trade in the Ancient Sahara and Beyond, Cambridge University Press, USA, 2017.

[٣] يعبر مصطلح السودان الغربي عن المنطقة التي تقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة بين المحيط الأطلنطي غربًا وبحيرة كوري (بحيرة تشاد) شرقًا، وتقع هذه المنطقة شمال خط الاستواء، وجنوب الصحراء الكبرى بين خطي عرض ١١ و ١٧ْ شمالاً، وتمثل هذه المنطقة المجال الموازي لبلاد المغرب، انظر: ابن سعيد: مصدر سابق، ص١٠؛ حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٣٧.

[٤] للاستزادة حول هذا الموضوع؛ يرجع إلى، حسين مراد: الصلات بين المغرب والسودان الغربي (خلال القرن ١٣/٠٩/٢٠٢٣٦. هـ /٨-١٢م)، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، الإسلام في أفريقيا ، الكتاب الحادي عشر، ٢٠٠٦.

تأسيسًا على ذلك؛ يسعى هذا البحث لمناقشة مزاعم بعض الباحثين اليهود والغربيين بشأن استقرار اليهود في المراكز التجارية جنوب الصحراء وتحديدًا في بلاد السودان الغربي، ومبالغاتهم في تمجيد دور اليهود في تلك البلاد بشكل عام ودورهم في التجارة عبر الصحراء على نحوٍ خاص، ومغالاتهم في تفخيم هذا الدور وتلوينه بمنظورهم رغبة منهم في تمجيد أسلافهم، وتبيان فضل لا وجود له على الحضارة الإسلامية والمسلمين[١].

هناك عدة اعتبارات جعلت أطروحة الوجود اليهودي في بلاد السودان الغربي ودورهم المؤثر في التجارة عبر الصحراء تلقى رواجًا ورسوخًا بين عدد من المهتمين والمتخصصين في تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الإسلامي، والمهتمين بتاريخ اليهود بوجهٍ عام. يأتي في مقدمة تلك الاعتبارات؛ وجود اليهود واستقرارهم في المحطات المهمة للتجارة عبر الصحراء في بلاد المغرب الإسلامي، فضلاً عن تمرس اليهود في بعض الحرف المهمة واحتكارهم لها، وخاصة حرفة صياغة الذهب والمعادن الثمينة، زد على ذلك توظيف عدد من الأقلام لباحثين يهود وغربيين لترويج تلك المزاعم، والدفاع عنها في عدد من الدراسات. وبدأ تناقل هذه المزاعم يزداد باضطراد بين عدد كبير من الباحثين الذين نسبوا لليهود دورًا كبيرًا في التجارة عبر الصحراء دون نقدٍ أو تمحيص. وكان ازدياد عدد من تبنوا هذه الفكرة محاولة لإعطائها رسوخًا أكبر عن ذي قبل.

وقد زاد من حدة المشكلة أن الباحثين العرب المحدثين أعرض بعضهم عن الإقبال على دراسة هذا الموضوع الشائك، بينما نقل البعض الآخر وبكل أسفٍ دون تحرٍ للدقة أو إعمال لأبسط القواعد المنهجية، ما دونه المؤرخون اليهود والغربيون.

ومن أمثلة انسياق بعض الباحثين العرب وراء تلك المزاعم قول الدكتور **عبد القادر كركار** "**سجلت أفريقيا جنوب الصحراء في مدنها التجارية حضورًا للعنصر اليهودي الذي كان يشكل نسبة هامة من السكان المقيمين بها كمالي والنيجر وأبرزها تونبوكتو وتمكن اليهود من السيطرة المتزايدة في الحركة الاقتصادية بها، بسبب خلو المجال أمامهم وضعف المنافسة من طرف السكان الزنوج**"[٢]. وفي موضع آخر يصفهم بأنهم "**خبراء المسالك وأنواع البضائع المتداولة في الجزائر وأفريقيا مع أوروبا**"[٣].

---

[١] عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي (٢٢-٤٦٢هـ/٦٤٢-١٠٧٠م)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١، ص٩.

[٢] الروابط الاقتصادية بين ضفتي الصحراء الكبرى ودور اليهود في النشاط التجاري أواخر العصر الوسيط، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، الجزائر، العدد٧، ٢٠١٦، ص ١٤٥.

[٣] المرجع السابق، ص ١٤٥.

كما خُدع البعض بتلك المزاعم؛ وذهبوا إلى أن اليهود استقروا بالمدن السودانية وسيطروا على تجارة الصحراء[١].

كما تحدثت الدكتورة فاطمة بوعمامة عن جلب اليهود للسلع المهمة من بلاد السودان ونقلها إلى أوروبا. وأشارت أيضًا إلى أن اليهود اضطلعوا بدور كبير في تطوير التجارة عبر الصحراء، بل انتهت إلى القول بأن اليهود "**كانوا هم الطرف الأساسي لرسم الخطوط والقواعد الأساسية لهذه التجارة**". وأشارت إلى أن طريق الذهب العابر للصحراء عرف بطريق اليهود. كما جزمت بوجود جهاز تجاري يهودي محكم عبر الصحراء، وأن هذا جعل ملوك أوروبا يتطلعون للسيطرة على طريق الذهب[٢]. والسؤال كيف يتطلع ملوك أوروبا للسيطرة على طريق بري صحراوي بأيدي المسلمين منذ فترات طويلة؟ وهل كان بإمكانهم ذلك؟

وليست هذه المزاعم سوى نقل حرفي لما كتبه مروجو الأطروحة من الباحثين اليهود والغربيين دون نقد أو تمحيص أو قراءة متأنية للمصادر، فعلى سبيل المثال فإن المزاعم التي تضمنتها دراسة دكتورة فاطمة بو عمامة هي مجرد ترجمة حرفية لما كتبه تشارلز مونتيل **Charles Monteil** في بحثه بعنوان "**مشكلات السودان الغربي: اليهود واليهودية Problemes du Soudan Occidental: Juifs et Judaises**"[٣].

في المقابل هناك عدد من المؤرخين رفضوا على استحياء تصديق أطروحة دور اليهود في المراكز الجنوبية السودانية للتجارة عبر الصحراء، ولم يفندوها، بل إنهم لم يذكروا أسباب رفضهم لها، ومنهم المؤرخ وعالم الآثار

---

[١] انظر على سبيل المثال: الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي، دار المجمع العلمي، جدة، ١٩٧٩، ص١٦٥؛ محمد الحبيب الخوجة: يهود المغرب العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٨٣، ص٣٣-٣٥؛ بوزياني الدراجي: نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٣، ص٢١٣؛ تركي عجلان الحارثي: تغير وضعية اليهود في المغرب الأقصى في القرن التاسع عشر وموقف الحكومة المغربية منها، مجلة دراسات تاريخية، السنة الرابعة عشر، العددان ٤٥، ٤٦، آذار- حزيران ١٩٩٣، ص١٨٨؛ عطا رية: اليهود في المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة، سورية، ١٩٩٩، ص١٦٧؛ إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، دار هومة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٥، ص٥٠٧؛ محمد محمد إسماعيل: ثورات العرب والبربر واليهود في المغرب الأقصى والأندلس في عهد دولة بني مرين ٦١٥- ٨٩١هـ/١٢١٣-١٤٦٥م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٢٠١؛ محمد قويدر: التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١٢، ص١٥٨؛ أحمد سميح: تاريخ جماعات اليهود واليهودية في أفريقيا في العصر الحديث رؤية تاريخية جديدة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٤، ص٢٣.

[٢] اليهود في المغرب الإسلامي (خلال القرنين ٧-٩هـ/ ١٣-١٥م)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١١، ص٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٣١.

[3] Monteil, Ch.: Problemes du Soudan Occidental: Juifs et Judaises, Hesperis, Tom. XXXVIII, Année 1951, pp.265- 298.

الفرنسي **ريموند موني Raymond Mauny** وهو أول من أعلن عن رفضه للأطروحة عام ١٩٤٩، في مقالة عنوانها: "**اليهودية واليهود في غرب أفريقيا Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale**". ومنهم أيضًا بعض اليهود المعتدلين، مثل: المؤرخ اليهودي الألماني **شلومو دوف جويتاين Shelomo Dov Goitein** ويعد من أبرز الرافضين للأطروحة، وكذلك المؤرخ اليهودي الإسرائيلي **نحميا ليفتسيون Nehmeia Levtzion**. وسوف نعرض لرأيهم حول القضية في ثنايا هذا البحث.

أما عن **تحديد الفترة الزمنية**، فالبحث يتعلق بفترة العصر الإسلامي لممالك السودان الغربي، والتي تمتد زمنيًا لقرابة التسعة قرون؛ بدءًا من تعرف هذه الممالك على الإسلام منذ الربع الثاني من القرن الثاني للهجرة، بفضل التجار المسلمين، وحتى نهاية عهد مملكة صُنغي الإسلامية مع نهايات القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، وتحديدًا عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م. وإذ نعترف باتساع مساحة البحث زمنيًا؛ فإن لهذا ما يبرره، فالأدلة التي استعان بها المروجون لأطروحة دور اليهود في المراكز الجنوبية للتجارة عبر الصحراء تبدأ بالزعم بوصول هجرة من يهود يثرب إلى السودان الغربي على إثر صراع اليهود مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم خلال العقد الأول من القرن الأول للهجرة[١]، وتمتد تلك الأدلة حتى رواية الحسن الوزان (المتوفى عام ٩٦٠هـ/١٥٥٢م)[٢] عن عداء ملك صُنغي لليهود، والتي اتخذت دليلاً على دور اليهود التجاري في السودان الغربي خلال القرن العاشر للهجرة. وعلى هذا كان من الضروري تتبع هذه الأدلة عبر المدى الزماني المحدد.

وفي ختام هذه المقدمة، ومن باب الإنصاف، فإني أحمد الله سبحانه وتعالى، وأدين بكل فضل لأستاذي العالم الجليل الأستاذ الدكتور **حسين سيد عبد الله مراد**[٣]، الذي نبَّه الباحث منذ عدة سنوات إلى خطورة قضية دور اليهود في التجارة عبر الصحراء، ووجهني إلى ضرورة التصدي لها، وجمع أدلة الزاعمين بهذا الدور، ومناقشتها والرد عليها. وسوف تندرج مناقشة هذا الموضوع تحت أربعة محاور رئيسة على النحو التالي:

أولاً- مراحل تشكيل الرأي القائل بالدور اليهودي المزعوم في التجارة عبر الصحراء.

ثانيًا- تفنيد الأدلة والآراء القائلة بدور اليهود في التجارة عبر الصحراء.

ثالثًا- موقف بعض المؤرخين الغربيين من مزاعم الدور اليهودي في التجارة عبر الصحراء.

رابعًا- حدود مشاركة اليهود في التجارة عبر الصحراء.

---

(1) Le Chatelier, Alfred: L'islam dans l'Afrique occidentale, Paris, 1899, p.33.

(٢) انظر، وصف أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ج٢، ص١٦٧.

(٣) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الدراسات الأفريقية العليا جامعة القاهرة، وأحد أبرز رواد تاريخ أفريقيا الإسلامي.

هناك سؤال جوهري يفرض نفسه: كيف تشكل الرأي القائل بالوجود اليهودي المؤثر في بلاد السودان الغربي، وما ترتب على هذا الوجود من تأثير يهودي كبير في النشاط التجاري عبر الصحراء؟

أولاً– مراحل تشكيل الرأي القائل بالدور اليهودي المزعوم في التجارة العابرة للصحراء الكبرى:

ويمكن تقسيم مرحلة تشكيل هذا الرأي إلى مرحلتين: مرحلة التمهيد للأطروحة، ومرحلة الترويج لها.

١– مرحلة التمهيد للأطروحة:

تعد هذه المرحلة أخطر مراحل تشكيل الرأي القائل بوجود اليهود ودورهم التجاري في بلاد السودان الغربي، فهي المرحلة التي شهدت ميلاد الفكرة وتَبَنِّيهَا، وامتدت هذه المرحلة بين عامي ١٨٩٩، ١٩٢٧. وقد تصدَّى للقيام بهذا الدور أربعة من المؤرخين والأنثروبولوجيين وعلماء اللغة. ونسجل بدايةً أن جميعهم كانوا مسئولين استعماريين فرنسيين. ومن المعلوم أن المدرسة الاستعمارية في تأريخها لأفريقيا كانت لها نزعاتها وشَطَحَاتها الفكرية في كثير من الأحيان(١). كما يلاحظ أيضًا أن عناوين مؤلفات هذه المرحلة لم تكن تتعلق بشكل مباشر بموضوع اليهود في أفريقيا جنوب الصحراء أو في بلاد السودان الغربي على وجه التحديد.

ويعد **ألفريد لو شاتلييه Le Chatelier, Alfred** أول من تبنَّى الفكرة ومهد لها، وهو مسئول استعماري فرنسي، حين ذهب في كتابه الذي ألفه عام ١٨٩٩م بعنوان: "**الإسلام في غرب أفريقيا L'islam dans l'Afrique occidentale**" إلى وصول هجرات يهودية لبلاد السودان الغربي، قادمة من شبه الجزيرة العربية وبالتحديد من يثرب وخيبر(٢)؛ نتيجة للصراع مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعبر المهاجرون البحر الأحمر واستقر بعضهم في الحبشة ووصل آخرون إلى منطقة دلتا نهر النيجر. ولم يكتف لو شاتلييه بمجرد الحديث عن وصول هجرات يهودية بل يحدثنا عن الدور الكبير الذي أسهم به هؤلاء المهاجرون اليهود في الممالك السودانية، ونجاحهم في تأسيس مملكة يهودية احتلت موقعًا مهمًا بين نهر النيجر شرقًا والمحيط الأطلسي في الغرب(٣). ولم يقدم لوشاتلييه أي أدلة تدعم أطروحته مكتفيًا بالحديث عن تشابه طقوس وتقاليد المهاجرين المذكورين مع الطقوس والتقاليد اليهودية دون أن يعطينا أمثلة على هذا التشابه(٤).

---

(١) أحمد الشكري: انخراط الكنيسة الكاثوليكية في حقل الدراسات الأفريقية التجربة التاريخية للأب جوزيف كيوك، دورية كان التاريخية، العدد ٢٦، ديسمبر ٢٠١٤، ص١٢٩.

(2) L'islam dans l'Afrique occidentale, Paris, 1899, p.33.

(3) Ibid, pp.123-126, Slousch, Nahum: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, Archives Marocaines Publication De La Mission Scientifique du Maroc, Paris, 1906, Volume VI, p.69.

(4) Le Chatelier, Alfred: Op.cit, p.314.

بعد مضي سبع سنوات فقط وتحديدًا في عام ١٩٠٦، يظهر ثاني الممهدين للأطروحة، وهو المؤرخ والرحالة اليهودي البريطاني **ناحوم سلوش Nahum Slousch** الذي أخذ يمهد لها في أعوام: ١٩٠٦، ١٩٠٨، ١٩٢٧ في مؤلفاته: "**دراسة حول تاريخ اليهود في المغرب Etude sur l'histoire des juifs au Maroc**"، وأيضًا: "**العبرية الفينيقية واليهودية البربرية مقدمة حول تاريخ اليهود واليهودية في أفريقيا Hébraeo-Phéniciens et Judéo-Berbères: introduction à l'histoire des Juifs et du Judaisme en Afrique**"، وأخيرًا دراسته بعنوان "**رحلات في شمال أفريقيا Travels in North Africa**".

لقد عمل سلوش أستاذًا لتاريخ اليهود في جامعة السوربون، وله تاريخ طويل من الترويج لليهود ومزاعم دورهم التاريخي والحضاري، فأي أساطير تتحدث عن أي أثر أو دور لليهود يتعامل معها على أنها حقائق مؤكدة، هذا فضلًا عن تطويع بعض النصوص؛ خدمة لأغراضه تلك[١]. كان سلوش أيضًا أحد اليهود البارزين الذين اعتمدت عليهم منظمة الأراضي اليهودية في لندن بدافع إيجاد وطن قومي لليهود. وقد كُلف منذ عام ١٩٠٥ بالكتابة عن الأصول التاريخية لمجموعات مختلفة من اليهود في أفريقيا عامة وحوض البحر

---

[١] من أدلة ذلك حديثه عن دولة برغواطة في تامسنا بالمغرب الأقصى، فقد استغل سلوش ما ذكرته بعض المصادر عن خروجها عن تعاليم الدين الإسلامي الصحيح وادعاء مؤسسها النبوة وزعم بأنها دولة يهودية.

انظر، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص١٣٠.

Slousch, Nahum: L'Empire des Berghouata et les origines des Blad-es-Siba, Rev. du Monde Musulman,T, II, Paris, 1910, p.394.

وقد تصدى بعض المؤرخين للدفاع عن عقيدة برغواطة، وقالوا بأن بعض المصادر الإسلامية بالغت في وصفها لتلك العقيدة؛ لأن كثيرًا من مؤلفي تلك المصادر كانوا يخدمون أهدافًا مذهبية وسياسية معادية لبني طريف البرغواطيين. انظر، محمود إسماعيل: حقيقة المسألة البرغواطية – مغربيات: دراسات جديدة، مطبعة فضالة، المملكة المغربية، ١٩٧٧، ص ١٣–٥٥؛ سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥، ص٤١٨؛ رجب محمد عبد الحليم: دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى ١٢٥–٤٥٥هـ/ ٧٤٣–١٠٦٣م، دار التوفيق، القاهرة، ١٩٩١، ص ٤٧ وما بعدها؛ سحر السيد عبد العزيز سالم: من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص٥٤، ٦٤.

وعندما اختير سلوش عضوًا في بعثة شكلها اليهود عام ١٩٠٩ زارت برقة لدراسة مدى صلاحيتها لإنشاء وطن قومي لليهود، زعم بأن اليهود سكنوا برقة منذ عهد الفينيقيين، وأنه عثر على آثارهم وبقايا مستعمراتهم وخرائب مدن ونقوش عبرية، لكنه لم يقدم أي أدلة ملموسة على هذا القول. مصطفى كمال عبد العليم: دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي، ١٩٦٦، ص ١٨١.

المتوسط خاصة، وبدأ يزور عدة أماكن في أفريقيا ويجمع الروايات الشفهية والأدلة الداعمة للحديث عن الخلفية التاريخية لليهود واليهودية في أفريقيا[١].

لقد نقل سلوش رواية لوشاتلييه كما هي، بل وزاد عليها، وأخذ يتحدث عن الدور الكبير لليهود في بلاد السودان الغربي بوجه عام، ليس على الصعيد التجاري فقط وإنما على كافة الأصعدة[٢]. غير أن سلوش لم يكتف مثل لوشاتلييه بمجرد طرح القضية أمام المختصين، وإنما حشد لها بعض الأدلة.

ففي سبيل تزكية الأطروحة، استدل سلوش بثلاثة أدلة؛ الدليل الأول؛ ما جاء في أسطورة إلداد الداني[٣]، وهي أسطورة روج لها يهودي من الحبشة في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، اسمه **إلداد بن محلي بن حزقيال بن حزقيا بن علوك الداني.** وقد روى الداني قصة عن وجود إمبراطورية عبرية في بلاد السودان، وأنها تمتد لمسيرة مائتي يوم، وأن أهلها اعتنقوا اليهودية، وكان يحكمهم إمبراطور يهودي، اسمه **تلوتان أو بولاتان** الذي تحول إلى "**الإسلام السياسي**" أي أنه أسلم لتحقيق مكاسب سياسية، وبدأ حقبة من الصراعات الدموية مع القبائل المجاورة[٤]. وقد تلقف سلوش هذه الأسطورة، واقترح اتخاذها بدايةً لما أسماه "**الهيمنة اليهودية في الصحراء وبلاد السودان**"[٥]، وذهب إلى القول بوجود مملكة يهودية في تلك البلاد استمر وجودها حتى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد[٦]؛ مستدلاً بسيطرة تلوتان بن تكلان على دفة الحكم في الإمبراطورية اليهودية المذكورة، وادعى من خلال الرجوع إلى كتاب تاريخ العدواني[٧] (مؤلفه من أهل القرن ١٧م) أن تكلان هو زعيم يهود خيبر الذين هزمهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم عام ٧هـ/٦٢٨م[٨].

---

[١] مصطفى بعيو: المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، ١٩٧٥، ص ٥٧– ٦٣.

[2] Slousch: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, p.67, Slousch: Hébraeo-Phéniciens et Judéo-Berbères, Archives Marocaines Publication De La Mission Scientifique du Maroc, Paris, 1906, Volume XIV, pp.334, 335.

[3] Slousch: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, p.67, Slousch: Hébraeo-Phéniciens, pp.334, 335.

[4] Monteil, Ch.: Problemes du Soudan Occidental, p.275, Williams, Joseph: Hebrewisms of West Africa from Nile to Niger with the Jews, Delhi university press, 1930, p.228, Windsor, Rudolph, R: From Babylon to Timbuktu: a history of the ancient black races including the black Hebrews, Lushena Books, USA, 19th Printing, 2003, p.92.

[5] Slousch: Etude sur l'histoire des juifs, p.67, Slousch: Hébraeo-Phéniciens, pp.334, 335.

[6] Slousch: Hébraeo-Phéniciens, p.432.

[٧] محمد بن محمد بن عمر العدواني: تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦، ص٧٩.

[8] Slousch: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, pp.68, 69, Monteil, Ch: Op.cit, p.275.

وسلوش هنا يتحدث عن مملكة أودغست[١] الصحراوية، وأن من حكمها هو **تلوتان بن تكلان**[٢]. ويستند في ذلك **لابن أبي زرع** (الذي كان حيًا عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) في حديثه عن الدولة المرابطية اللمتونية في الصحراء وذكر أن أول ملوكهم هو **يتلوتان بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني** الذي ملك بلاد الصحراء بأسرها ودان له بها أزيد من عشرين ملكًا من السودان كلهم يؤدون له الجزية، وكان معاصرًا لحكم **عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس** (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م)، وتوفي سنة ٢٢٢هـ/٨٣٧م بعد أن حكم خمسًا وستين سنة[٣]. في ضوء ذلك انتهى سلوش إلى أن تكلان والد تلوتان كان يهوديًا[٤].

الدليل الثاني الذي احتج به سلوش، رواية وردت عند المؤرخَيْنِ السودانِيَّيْن **محمود كعت**[٥] (المتوفى عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) و**عبد الرحمن السعيدي**[٦] (المتوفى عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) بخصوص مدينة تَنْدِرْمَ أو تَنْدِرْمَة الواقعة على الفرع الغربي من نهر النيجر على بعد ١٠٠ كيلو متر جنوب شرق تنبكت[٧]، والتي كانت موطنًا لقوم من بني إسرائيل قبل تأسيسها عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م. استند سلوش لهذه الرواية وقال: "**ينسب العرب والمؤرخون السودانيون إلى اليهود الأفارقة القدامى تأسيس الإمبراطوريات الأولى، وتشييد المباني العامة الأولى في البلاد، وتشييد أولى قنوات الري وتأسيس النظم الاقتصادية والاجتماعية التي لا تزال قائمة في تلك المجتمعات**"[٨]. وهو بذلك أول من روج لتأثير اليهود في بلاد السودان على كافة الأصعدة، ومنها الصعيد الاقتصادي ولا سيما التجاري.

---

[١] أَوْدَغَسْت مملكة تقع في جنوب غرب الصحراء الغربية بين خطي طول ١٠، ١١ غربًا، وخطي عرض ١٨، ١٩ شمالًا. وهي تقع إلى الجنوب من مدينة سجلماسة المغربية وتقدر المسافة بينهما بمسيرة شهرين، وتقع أيضًا على الحدود الشمالية لمملكة غانة القديمة بمسافة تمتد لمسيرة خمسة عشر يومًا. وهي وادٍ عامر بين جبلين؛ مما دفع ابن حوقل الذي زارها عام ٣٤٠هـ/٩٥١م إلى وصفها بأنها "أشبه بلاد الله بمكة المكرمة". انظر، اليعقوبي: البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٩٩؛ ابن حوقل: صورة الأرض، دار صادر، بيروت، طبعة بريل، ليدن، ١٩٣٨، ص٩٢؛ البكري: مصدر سابق، ص٨٤٨-٨٤٩؛ حسين مراد: دولة أودغست الإسلامية من القرن الثاني إلى القرن الخامس للهجرة/ القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد، المجلة التاريخية المصرية، مجلد٤٦، ٢٠٠٩، ص١٠٨، ١٠٩.

[2] Slousch, Nahum: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, p.69.

[٣] الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٢٠، ١٢١.

[4] Slousch, Nahum: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, p.70.

[٥] تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ص ١٦٢، ١٦٣.

[٦] تاريخ السودان، هامش رقم (١) للمحقق، ص ٢٣٨.

[7] Oliel, Jacob: les Juifs au Sahara le Touat au moyen age, Paris, 1994, p.121.

[8] Slousch, Nahum: Travels in North Africa, The Jewish publication society of America, Philadelphia, 1927, p. 344, Windsor, Rudolph: Op.cit, p.89.

الدليل الثالث، احتج سلوش بوجود أدلة آثارية تؤكد الدور التجاري لليهود في بلاد السودان، ومن ذلك وجود آثار للمدن اليهودية القديمة في الصحراء والسودان، وأن هناك أدلة وثائقية لنقوش عبرية، مثل تلك الموجودة في توات، التي يعود تاريخها إلى القرنين ٧-٨هـ/ ١٣-١٤م[١]. وسوف يتم الرد على هذا التزييف لحقائق التاريخ.

ويعد **ألفريد جورج بول مارتين Alfred Georges Paul Martin** –وهو ضابط استعماري ومترجم فرنسي خدم في منطقة الواحات الصحراوية جنوب الجزائر- ثالث الممهدين لأطروحة وجود اليهود ودورهم في التجارة ببلاد السودان، حيث تحدث عام ١٩٠٨ في مؤلفه بعنوان "**الواحات الصحراوية: قورارة، توات، تيديكلت Les Oasis Sahariennes (Gourara-Touat-Tidikelt)**" عن هجرة يهود توات إلى بلاد السودان؛ نتيجة الحملة التي قادها ضدهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، وعملوا في النشاط التجاري هناك[٢]. وهو بذلك يضيف دليلاً جديدًا لتزكية الأطروحة.

أما رابع من تبنوا تلك الأطروحة ومهدوا لها، فهو **موريس دولافوس Delafosse, Maurice** –وهو أيضًا مسئول استعماري فرنسي وعالم أنثروبولوجي– الذي أورد آراءه حول القضية في عام ١٩١٢ في كتاب: "**أعالي السنغال- النيجر (السودان الفرنسي) Haut-Sénégal-Niger (Soudan français)**"، فقد ردد قول لوشاتلييه بوصول هجرات يهودية لبلاد السودان الغربي، لكنه اختلف معه وذهب إلى أن هؤلاء اليهود المهاجرين كانوا سوريين وأنهم وصلوا إلى تلك المنطقة في وقتٍ مبكر جدًا، واستقر بهم المقام في منطقة فوتا السنغالية، وأصبح هؤلاء اليهود السوريون، من ناحية أسلاف الفولاني، ومن ناحية أخرى، مؤسسي إمبراطورية غانة حوالي عام ٣٠٠م. وقد أسس دولافوس فرضيته على تشابه تقاليد الفولاني مع التقاليد اليهودية. كما زعم دولافوس بأن حكام غانة الأوائل كانوا يهودًا استنادًا لما ذكره السعيدي[٣] عن الاثنين وعشرين أميرًا من ذوي البشرة البيضاء، الذين حكموا غانة قبل الهجرة النبوية[٤]. وبهذا فإن دولافوس لم يتحدث فقط عن دور تجاري لليهود وإنما جزم بوجود نفوذ سياسي لهم على واحدة من أهم الممالك السودانية وهي مملكة غانة، ولم يكتف بما قاله لوشاتلييه عن تأسيس اليهود لمملكة ببلاد السودان، وإنما تكهن بهذه المملكة وجزم بأنها مملكة غانة.

---

(1) Travels in North Africa, p.345, Windsor, Rudolph: Op.cit, pp.92, 93, 118.

(2) Paul Martin, Alfred Georges: Les Oasis Sahariennes (Gourara-Touat-Tidikelt), Paris, 1908, Deuxième Partie, pp.186, 187.

(٣) تاريخ السودان، ص ٨١.

(4) Delafosse, Maurice: Haut-Sénégal-Niger (Soudan français), Larose, Paris, 1912, Vol.1, pp. 207-226; Vol.II, pp. 22-25.

وفيما يتعلق بالنشاط التجاري فقد اتفق دولافوس مع سلوش واتخذ من رواية كعت والسعيدي حول استقرار اليهود في مدينة تندرمة، دليلاً على وجود حرفيين وتجار يهود في بلاد السودان الغربي[١]. وأضاف دولافوس إلى هذه الرواية، رواية الحسن الوزان، وعدَّها دليلاً على الدور المؤثر لليهود في التجارة عبر الصحراء[٢]؛ وفحوى هذه الرواية وفقًا للوزان أن الأسكيا محمد الأول[٣] (٨٩٨-٩٣٥هـ/١٤٩٣- ١٥٢٩م) ملك صُنغي[٤] **"عدو لدود لليهود، لا يريد أن يقطن أحد منهم في المدينة، وإذا علم أن تاجرًا من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله"**[٥].

وبالنظر في آراء الممهدين للأطروحة يلاحظ أن أدلتهم تنحصر في خمسة أدلة؛ **الدليل الأول:** اتفاقهم جميعًا على وصول هجرات يهودية لبلاد السودان الغربي منذ زمنٍ بعيد وأن هذه الهجرات مهدت لاستقرار؛ ومن ثم دور يهودي مؤثر على كافة الأصعدة، وأقدم المزاعم بشأن هذه الهجرات، وصول هجرات يهودية سورية نجحت في تأسيس مملكة غانة عام ٣٠٠م. وهذا الادعاء تبناه دولافوس. ثم هجرة يهود شبه الجزيرة العربية لبلاد السودان وفقا لما طرحه لو شاتلييه. وآخر الهجرات اليهودية كانت هجرة يهود توات إلى مملكة صُنغي أواخر القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد حسب قول بول مارتين. **الدليل الثاني:** وهو وجود مملكة يهودية في بلاد السودان وفقًا لأسطورة الداني، وهو دليل انفرد به ناحوم سلوش. أما **الدليل الثالث:** فيتعلق بما أورده كل من كعت والسعيدي حول وجود قوم من بني إسرائيل في مدينة تندرمة، وهذا الدليل استدل به كل من ناحوم سلوش وموريس دولافوس. ويتعلق **الدليل الرابع:** الذي استدل به سلوش بوجود شواهد آثارية تدل على الوجود اليهودي ببلاد السودان. أما **الدليل الخامس والأخير:** فقد استدل به دولافوس ويتمثل

---

(1) Haut-Sénégal-Niger, Vol.1, pp. 207-226; Vol.II, pp. 22-25.

(2) Ibid, Vol.1, p.219, Leriche, Albert: Notes pour servir à l'histoire maure (Notes sur les forgerons, les kunta et les Maures du Hod, Bulletin de l'IFAN, vol. 25, no. 2, 1953, p.739.

(٣) الأسكيا محمد الأول هو محمد بن أبي بكر التوري مؤسس أسرة الأساكي (٨٩٨- ١٠٠٠هـ/١٤٩٣-١٥٩١م) التي حكمت مملكة صنغي الإسلامية بعد أسرة آل سني. وصلت صنغي في عهده لأقصى اتساع لها، وقام برحلة شهيرة للحج عام ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. انظر محمود كعت: مصدر سابق، ص١٥٩، ١٦٥.

(٤) قامت مملكة صنغي الأولى في إقليم دندي على نهر النيجر الأدنى، وكان أول ملوكها من أسرة الأزواء والذين اتخذوا من مدينة كوكيا عاصمة لهم ويرجع السعيدي أصول هذه الأسرة إلى اليمن. وقد حكم المملكة من هذه الأسرة واحد وثلاثون ملكًا منهم أربعة عشر كانوا على الوثنية، والباقون على الإسلام وقد ازدهرت المملكة في عهد هذه الأسرة، ثم حكمت أسرة آل سني مملكة صنغي، وبعدها أسرة الأساكي التي ظلت تحكم المملكة حتى سقوطها أمام الغزو السعدي. انظر: ملوك السودان، ص٣٥؛ حسين مراد: مملكة صنغاي، مجلة قراءات أفريقية، العدد الثالث عشر، رجب-رمضان ١٤٣٣/ يوليو-سبتمبر ٢٠١٢، ص١٣.

(٥) وصف أفريقيا، ج٢، ص١٦٧.

Hunwick, John: Timbuktu and the Songhay empire: Al-Sa'dī's Ta'rīkh Al-Sūdān down to 1613 and other contemporary documents, Brill, Leiden, Boston, 2003, p.281.

في إشارة الوزان بأن ملك تنبكت كان عدوًا لدودًا لليهود. وبعد عرض مزاعم الممهدين للدور اليهودي في التجارة عبر الصحراء تأتي مرحلة الترويج لهذا الدور.

٢- مرحلة الترويج للأطروحة:

ظهر عدد من الباحثين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الترويج للأطروحة، مستفيدين بما ساقه الممهدون من أدلة، بل وحاولوا جمع المزيد من الأدلة التي تدعم موقفهم. وتبدأ هذه المرحلة عام ١٩٣٠. ويظهر أن بعض عناوين مؤلفات الباحثين خلال هذه المرحلة كان مركزًا بشكل مباشر على دور اليهود في أفريقيا جنوب الصحراء وبلاد السودان الغربي. وسوف نعرض لأبرز المؤرخين والباحثين الذي روجوا للأطروحة.

أول من روج للأطروحة خلال هذه المرحلة هو القس الأمريكي **جوزيف ويليامز Williams, Joseph** الذي ألف كتابًا عام ١٩٣٠ بعنوان "**العبرية في غرب أفريقيا: من النيل إلى النيجر مع اليهود Hebrewisms of West Africa: from Nile to Niger with the Jews**".

لقد أيد ويليامز أطروحة استقرار اليهود ودورهم التجاري المؤثر في بلاد السودان الغربي، واتفق مع ما ذهب إليه ناحوم سلوش استنادًا لأسطورة إلداد الداني. كما اتفق ويليامز مع دولافوس فيما ذهب إليه بتأسيس اليهود لمملكة غانة، لكنه حدد ملوك غانة، وزعم بأن غانة خضعت لحكم أسرة زا التي ظل حكامها على اليهودية قبل إعلان الحاكم زَاكُسُي إسلامه عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، وذهب ويليامز وبعض الباحثين إلى أن تحول زاكسي للإسلام كان نتيجة لسيطرة المسلمين على النشاط التجاري عبر الصحراء ذي الأهمية البالغة لمملكة غانة[١]. وهو بهذا يقصد أن تحول هذا الحاكم للإسلام كان بدافع تحقيق مكاسب تجارية.

ظهر مروج آخر للأطروحة في نفس العام ١٩٣٠ وهو القس الأمريكي **آلان جودبي Godbey, Allen** والذي كان متخصصًا في دراسة العهد القديم والتاريخ العبري بجامعة ديوك، بولاية نورث كارولينا؛ في مؤلف بعنوان "**القبائل المفقودة أسطورة The lost tribes a myth**"، فكان من المروجين للدور اليهودي المؤثر في بلاد السودان الغربي، ولموضوع تأسيس اليهود لمملكة غانة، وأن أسرة زا التي حكمت تلك المملكة كانت يهودية[٢]. كما أكد على الدور التجاري الكبير لليهود في بلاد السودان الغربي، وأنهم أمسكوا بزمام النشاط

(1) Hebrewisms of West Africa, p.228, Windsor, Rudolph: Op.cit, p.89, 93, Parfitt, Tudor: Black Jews in Africa and the Americas, Harvard university press, Cambridge, Massachusetts, London, 2013, p.203..

(2) Godbey, Allen: The lost tribes a myth, Duke university press, 1930, p.256.

التجاري هناك[١] بفضل الهجرات اليهودية التي وصلت لتلك البلاد على إثر طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال الذي حدث عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م في عهد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا؛ لأنهم حرضوا اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية والذين عرفوا بالمارونيين **Marranos** على عدم الولاء للمسيحية[٢]. وفر معظم هؤلاء اليهود إلى البلدان الإسلامية في شمال وغرب إفريقيا، ووصل بعضهم إلى أدرار في موريتانيا، وتم ترحيل البعض الآخر منهم إلى الساحل الغربي لأفريقيا، وانخرطوا بين السود بسهولة[٣].

حتى هنا لم يتعد الترويج للأطروحة طابع الإشارات المتناثرة في بعض الدراسات كما رأينا، وهي مزاعم لم تعضدها الأدلة التاريخية الموثوقة كما سنبين لاحقًا.

وحتى لا يظل الموضوع مجرد إشارات متناثرة، انبرى للدفاع عن الأطروحة والترويج لها، المؤرخ والمسئول الاستعماري الفرنسي **تشارلز مونتيل Charles Monteil** في دراسة نُشرت عام ١٩٥١، جمع فيها كل الآراء التي تبنت الأطروحة، وأكد على استقرار اليهود ببلاد السودان الغربي، وتنوع أدوارهم هناك، ومنها دورهم المؤثر في النشاط التجاري. فقد اتفق مع المتبنين للأطروحة بوجود نفوذ واستقرار يهودي ببلاد السودان الغربي استنادًا لما ورد في أسطورة الداني، وردد المزاعم التي ساقها البعض ومنها وصول عدد من يهود يثرب واستقرارهم ببلاد السودان، وأن تلوتان ملك أودغست هو ابن تكلان زعيم خيبر[٤]، ووصول هجرات يهودية واستقرارها بتلك البلاد، ولا سيما أولئك الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م[٥].

كما أخذ مونتيل بالرواية التي روج لها سابقوه والخاصة بأن مدينة تندرمة قبل تأسيسها عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م كانت موطنًا لقوم من بني إسرائيل. واتخذ من هذه الرواية دليلًا على وجود اليهود في بلاد السودان الغربي ووجود تجار وحرفيين يهود وقد دعم وجهة نظره بأن السيد **بونيل دي ميزيير Bonnel De Méziéres** عثر في مدينة تنبكت على ضفاف نهر النيجر في عام ١٩١٣ على بقايا مقبرة يسميها الأهالي "**المقبرة**

(1) Godbey, Allen: Op.cit, p.246, Windsor, Rudolph: Op.cit, pp.116, 124, Roth, Cecil: A History the Marranos, The Jewish publication society of America, Philadelphia, 1932, p.55, Seibert, Gerhard: 500 years of the manuscript of Valentim Fernandes, a Moravian book printer in Lisbon, In: Cieszyńska, Beata Elżbieta (Ed): Iberian and Slavonic Cultures: Contact and Comparison, Compares, Lisbon, 2007, p.85.
(2) Godbey, Allen: Op.cit, pp.246-247, Windsor, Rudolph: Op.cit, p.115.
(3) Godbey, Allen: Op.cit, pp.246-247, Monteil, Ch.: Op.cit, pp.269, 270, Windsor, Rudolph Op.cit, p.116.
(4) Problemes du Soudan Occidental, p.275.
(5) Ibid, pp.269, 270.

اليهودية"، وقد شاهد تناثر العظام على الأرض، ورجح أن هؤلاء هم بني إسرائيل الذين قاموا بحفر مئات الآبار لري الحدائق(١).

وفضلاً عن ذلك كثَّف مونتيل جهوده لجمع المزيد من الأدلة، وحاول استغلال بعض الإشارات الواردة في المصادر لهذا الغرض، ولا سيما تلك الإشارة التي أوردها الجغرافي **الإدريسي** (المتوفى عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م) في كتابه "**نزهة المشتاق**"، وتتعلق هذه الإشارة باستقرار اليهود في بعض مدن السودان الغربي وبلدانه، مثل مدينة قمنورية(٢)، الواقعة في إقليم أدرار في موريتانيا(٣). وأيضًا ما رواه عن وجود اليهود في بلد لملم(٤) ومدينتيها ملل، ودو(٥).

ولم تكن مثل هذه الإشارات وهي لمؤلف جغرافي ذي شأن لتمر مرورًا عابرًا على مروجي أطروحة وجود اليهود ودورهم التجاري في بلاد السودان، فأطلقوا العنان لاستنتاجاتهم، وكان مونتيل أكثرهم حماسةً في استغلال تلك الإشارة، ففسر الإشارة المتعلقة بمدينة ملل واستنتج وجود اليهود في مملكة مالي، وذهب إلى أن المناطق التي سكنها اليهود في لملم كانت قريبة جدًا من أرض الذهب في ونقارة(٦).

لم يُخف مونتيل ومؤيدوا الأطروحة فرحتهم برواية الإدريسي وتهافتهم عليها؛ لأنها تفي إلى حدٍ بعيدٍ بغرضهم. فنجد مونتيل يفصح عن تشبثه بتلك الرواية قائلاً: "إننا مدينون للإدريسي بأهم تدوين خاص

---

(1) Monteil, Ch: Op.cit, p.290, De Mézières, Bonnel: Reconnaissance à Tendirma et dansla région de Fati, Bulletin de la Section de Géographie, Comité destravaux historiques, XXIX, 1914, p. 128, Oliel, Jacob: Juifs et Noirs en Afrique de l'Ouest, passé et present, Pardès, In Press, N° 44, 2008, pp.32, 38, Haïdara, Ismael Diadié: Les Juifs À Tombouctou: Recueil Des Sources Écrites Relatives Au Commerce Juif À Tombouctou Au XIXe Siècle, Editions Donniya, Bamako, 1999, p.51, Levi, Janice R.: Beyond the Saharan Cloak: Uncovering Jewish Identity from Southern Morocco and throughout the Sahara, Ufahamu, Vol.39, No.2, Spring 2016, p.117.

(٢) نزهة المشتاق، ص٨٠.

قمنورية من مدن السودان الغربي تتصل من جهة الغرب بالبحر المظلم "المحيط الأطلسي"، ومن الشرق بصحراء نيسر، انظر، الإدريسي: مصدر سابق، ص٨٠.

(٣) حماه الله ولد السالم: تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧، ص٥٢.

(٤) لملم بأرض السودان، ليس بعدها عمارة في جهة الجنوب، وتتصل شمالًا بمملكة غانة، ومن جهة الغرب بأرض مقزارة، ومن جهة الشرق بأرض ونقارة، انظر، الإدريسي: مصدر سابق، ص١٩، ٢٠.

(٥) الإدريسي: مصدر سابق، ص٨٠.

(6) Monteil, Ch.: Op.cit, pp.273, 274.

ونقارة هي بلاد التبر المذكورة "الموصوفة به كثرة وطيبًا". تقع ونقارة إلى الشرق من مملكة غانة. ومن غانة إلى أول بلاد ونقارة ثمانية أيام، انظر الإدريسي: مصدر سابق، ص٢٠، ٢٢.

باليهودية في غرب موريتانيا والسودان الغربي، لتزويدنا ببعض المعلومات عن هذا التوسع اليهودي الذي امتد حسب قول الإدريسي، خارج موريتانيا، حتى وصل إلى مالي"[١]. وانتهى إلى القول بأنه من خلال رواية الإدريسي، فليس ثمة شك أن اليهود –قبل وجود المرابطين ببلاد السودان– أثروا على السودانيين من خلال سيطرتهم على طرق التجارة الرابطة بين بلاد المغرب وأرض الذهب عبر موريتانيا إلى مملكة مالي[٢].

كما استدل مونتيل على وجود دور تجاري كبير لليهود بالرسالة التي كتبها التاجر الجنوي **أنطونيو مالفانت Antonio Malfante** الذي وصل إلى توات للاطلاع على أحوال التجارة عبر الصحراء والبحث عن مصدر لتوريد الذهب السوداني بعيدًا عن التجار المغاربة المسلمين. ودون مالفانت رسالته التي تحوي تفاصيل رحلته في عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م[٣]. واستنادًا لتلك الرسالة زعم مونتيل أن يهود توات وطأت أقدامهم مدينة تنبكت من أجل التجارة، وأنهم مارسوا نشاطًا تجاريًا كبيرًا بين توات وبلاد السودان الغربي، واستدل على ذلك بأن مالفانت حينما وصل توات نزل في ضيافة أحد اليهود ويدعى **يحيى بن يدير**[٤] الذي ذكر لضيفه أنه عاش لمدة أربعة عشر عامًا في تنبكت حيث جمع ثروته وأن أخاه يتابع نفس العمل هناك، ثم يواصل مونتيل القول بأن هذا المشروع اليهودي تم ضربه بشكل كبير عندما أصر "المتعصب المسلم" **محمد بن عبد الكريم المغيلي** في عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م على تدمير يهود توات[٥].

من خلال ما سبق يتضح أن تشارلز مونتيل حاول استغلال جُل الأدلة التي ساقها سابقوه ممن روجوا لهذه الأطروحة، كما إنه حاول استغلال بعض الإشارات التي أوردتها المصادر الإسلامية، والأوروبية؛ لتزكية الأطروحة وإعطائها قدرًا كبيرًا من المصداقية بين المختصين.

---

(1) Monteil, Ch.: Op.cit, p.272.

(2) Ibid, p.271.

(3) Oliel, J: Juifs au Sahara, Encyclopédie Berbère, No. 26: Judaïsme – Kabylie, Mai 2004, p.2.

إبراهيم طرخان: البرتغاليون في غرب أفريقيا، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٥، الجزء الأول، مايو ١٩٦٣، ص٢٩.

(٤) يشير مالفانت إلى أن يحيى بن يدير، بالإضافة إلى وضعه كرئيس لبلدية تمنطيط بإقليم توات، كان لديه ثروةً كبيرةً جمعها من بلاد السودان التي عاش فيها ويعرفها جيدًا، فقد تردد على تلك البلاد لمدة ثلاثين عامًا، منها أربعة عشر عامًا قضاها في تنبكت، سوق الذهب العالمي. وأخبر يحيى ضيفه مالفانت بأن شقيقه لا يزال موجودًا في تنبكت بل إنه يعد "أهم تاجر في المدينة". علاوة على ذلك، لا يزال يحيى بن يدير يتمتع بعلاقات تجارية مع بلاد السودان، فقد كان في كوكيا "منذ وقت ليس ببعيد". وقد سمع مالفانت من يحيى روايات مهمة حول المراكز التجارية الكبرى في السودان الغربي، والسكان، وعاداتهم، وحول النشاط التجاري.

De La Roncière, Ch.: Découverte d'une relation de voyage datée du Touat et decrivant a en 1447 Le Bassin du Niger, Extrait du Bulletin de la section de géographie, Paris, 1918, pp.15, 17, Oliel, Jacob: les Juifs au Sahara le Touat, pp.87, 88.

(5) Monteil, Ch.: Op.cit, pp.291, 292.

في عام ١٩٦٩ ظهر كتاب ألفه متهود أمريكي من أصل أفريقي وهو **رودلف ويندسور Rudolph Windsor** وقام بجمع كل الأدلة في هذا الكتاب الذي حمل عنوان "**من بابل إلى تنبكت تاريخ الأجناس السوداء القديمة متضمنًا العبرانيين السود From Babylon to Timbuktu: a history of the ancient black races including the black Hebrews**". غير أن ويندسور كان له هدف جديد سعى إليه من تأليف هذا الكتاب، وهو إثبات فضل اليهود السود في الحضارة الأفريقية(١).

ويلاحظ أن ويندسور أورد غالبية الأدلة التي ساقها مروجو الأطروحة للتأكيد على استقرار اليهود ودورهم التجاري ببلاد السودان الغربي، فاستدل بأسطورة إلداد الداني، ووصفها بأنها رواية "**موثوقة**"(٢).

اتفق ويندسور أيضًا مع القائلين بوصول هجرات يهودية لتلك البلاد، ونقل عن دولافوس مزاعمه بوصول هجرة يهودية سورية، وانتهى إلى القول بأنه "**عندما جاء المسلمون إلى بلاد السودان الغربي وجدوا اليهود متمركزين على جميع طرق هذه التجارة**"(٣).

كما زعم ويندسور استنادًا لرواية الإدريسي، بأن اليهود انتشروا في بعض المناطق الساحلية والداخلية ببلاد السودان، بعد تفكك ما أسماه بالممالك العبرية في غانة وقمنورية ولملم الذين تحدث عنهم الإدريسي، وأن هؤلاء المهاجرين العبرانيين وقعوا تحت ضغط الدعوة الإسلامية، مما أدى إلى ما يعرف بـ "**الانتشار الثقافي**"، فأصبح العديد من اليهود مسلمين ولكنهم ظلوا محتفظين بيهوديتهم(٤). كما ذهب ويندسور إلى القول بأن رواية الإدريسي تؤكد وجود العديد من القبائل والممالك اليهودية وتنوع أدوارهم في السودان الغربي، واستنتج احتكار اليهود للتجارة في بلاد السودان، فقال: "ولما كانت منطقة لملم تقع على بعد حوالي مائتي ميل إلى الغرب من تنبكت، فقد احتكر التجار العبريون التجارة التي كانت تتركز في تنبكت. لقد كانت لملم يهودية بالكامل، وخاضت حروبًا للحفاظ على سيطرتها على التجارة وفقًا لما ذكره الإدريسي"(٥). كما زيف الوقائع مستغلًا إشارة الإدريسي المتعلقة بمدينة ملل، وادَّعى وجود اليهود في مملكة مالي، وأن المناطق التي سكنها اليهود في لملم كانت قريبة جدًا من أرض الذهب في ونقارة(٦).

(1) From Babylon to Timbuktu, pp.145, 146.
(2) Ibid, p.92.
(3) Ibid, p.120.
(4) Ibid, p.122.
(5) Ibid, pp.121, 122.
(6) Ibid, p.121.

أيضًا اتفق ويندسور مع جودبي في القول بوصول هجرة يهودية لبلاد السودان الغربي عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م على إثر طردهم من إسبانيا والبرتغال في عهد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، وانخرطوا بين السود بسهولة[١]، وادَّعى بأن هؤلاء اليهود أمسكوا بزمام النشاط التجاري هناك[٢].

رغم تلك المساعي الحثيثة التي بُذلت بهدف الترويج للأطروحة، لم يعرها المؤرخون المختصون اهتمامًا كبيرًا؛ مما دفع **ميشيل أبيتبول Michel Abitbol**، المؤرخ اليهودي الإسرائيلي، ورئيس قسم الدراسات الأفريقية بالجامعة العبرية في القدس، لإعادة طرح القضية من جديد عام ١٩٧٩، في مقالة عنوانها: "**اليهود المغاربيون والتجارة عبر الصحراء إلى حدود القرن الخامس عشر Juifs Maghrébins et commerce transsaharien du Ville au XVE siécle**".

أعاد أبيتبول طرح الأدلة التي ساقها من سبقه من المروجين للأطروحة، ومن ذلك نقله عن مونتيل رواية الإدريسي، وعدَّها دليلاً على الدور التجاري المؤثر لليهود من خلال استقرارهم في قلب بلاد السودان وفي الجوار المباشر لأرض الذهب أهم سلع التجارة العابرة للصحراء[٣]. أيضًا عدَّ أبيتبول إشارة كعت والسعيدي بوجود قوم من بني إسرائيل في موضع مدينة تندرمة من أهم الدلائل على وجود جاليات يهودية جنوب الصحراء، ومشاركتها بفاعلية في التجارة عبر الصحراء[٤].

ومن الأدلة التي استخدمها أبيتبول أيضًا رواية الوزان المتعلقة بعداء الأسكيا محمد لليهود، وأطلق أبيتبول لخياله العنان حينما أشار إلى أن هذا الإجراء الانتقامي من الأسكيا ليس له معنى إلا إذا كان عدد اليهود كبيرًا، وأنهم غادروا تلك البيئة المعادية لهم، فمصالحهم التجارية تعارضت مع مصالح التجار والعلماء المسلمين المحيطين بالأسكيا محمد[٥].

لقد أجهد أبيتبول نفسه محاولاً الوصول لأدلة جديدة تُكسب الأطروحة المصداقية المرجوة، فادَّعى أن بعض النصوص الحاخامية تؤكد الدور اليهودي في التجارة عبر الصحراء، وأهم هذه النصوص؛ ذلك السؤال الذي طرح على الحاخام **إسحاق برشيشت Le Rabbin Isaac Bar-Sheshet Barfat** (٧٢٦-٨١٠هـ/١٣٢٦-١٤٠٨م) الذي فر من إسبانيا إلى المغرب الأوسط نتيجة الاضطهاد الذي تعرض له اليهود عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م، حيث عرض عليه تجار توات من اليهود المتجولين سؤالاً حول جواز السير بالقافلة

(1) Windsor: Op.cit, p.116.
(2) Ibid, pp.116, 124.
(3) Abitbol, Michel: Juifs Maghrébins Et Commerce Transsaharien Du Ville Au XVE SIÈCLE, Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 66, n°242-243, 1er et 2e trimestres 1979, p.181.
(4) Ibid, p.182.
(5) Ibid, p. 192, BA, Idrissa: La problématique de la présence juive au Sahara et au Soudan d'après Jean Léon l'Africain, Outre-Mers, T. 94, N° 350-351, 2006, p.263.

في الصحراء يوم السبت مخافة أن تُترك وحيدة في الصحراء الشاسعة والمخيفة. وقد أجاز برشيشت للتجار اليهود السير بالقافلة يوم السبت بشرط أن يكونوا قد بدأوا رحلتهم منذ ثلاثة أيام على الأقل[١]. ومن هنا استنتج أبيتبول أن يهود توات شاركوا في القافلة السنوية الكبرى التي كانت تسلك الصحراء الكبرى نحو بلاد السودان كل شتاء[٢].

ويظهر مما سبق أن أبيتبول ركز في ترويجه للأطروحة على القراءة الخاطئة للإشارات الواردة في المصادر الإسلامية والتي استغلها سابقوه، وأضاف إليها بعض النصوص الحاخامية التي أكد على أهميتها في عرض القضية.

في عام ١٩٩٤، أعاد المؤرخ اليهودي الفرنسي **يعقوب أوليئيل Jacob Oliel** طرح القضية من جديد، في كتاب عنوانه "**اليهود في صحراء توات في العصور الوسطى les Juifs au Sahara le Touat au moyen age**". كما أدلى بدلوه حول هذا الموضوع في مقالتين نشرت إحداهما عام ٢٠٠٤، تحت عنوان "**يهود الصحراء Juifs au Sahara**"؛ والأخرى عام ٢٠٠٨ وعنوانها "**اليهود والسود في غرب أفريقيا Juifs et Noirs en Afrique de l'Ouest**".

أما الأدلة التي ساقها أوليئيل للتأكيد على وجود دور مهم لليهود في النشاط التجاري ببلاد السودان الغربي، فتتمثل في القول بوصول هجرات يهودية لبلاد السودان أسهمت بدور مهم في النشاط التجاري العابر للصحراء، ولذلك اتفق مع دولافوس فيما ذهب إليه بوصول هجرات من يهود سوريا إلى بلاد السودان، واستنتج أوليئيل أن هؤلاء اليهود كانوا قادرين على الانخراط في التجارة عبر الصحراء منذ القرن الرابع للميلاد[٣]. كما إنه اتفق مع أولئك الذين استشهدوا برواية الإدريسي وخاصة المتعلقة بمدينة ملل واستنتج وجود اليهود في مملكة مالي بالقرب من أرض الذهب في ونقارة؛ مما مكنهم من ممارسة نشاط تجاري كبير[٤]. كما ذهب إلى أن هذه الرواية تبرهن على استقرار يهودي مكثف ببلاد السودان الغربي، وعلق قائلاً: "**لا شك في أنه من المدهش أن تجد مثل هذه المجموعة المتنوعة من السكان اليهود في هذه المناطق؛ مهما كان الأمر، فإن هذا الشتات اليهودي ببلاد السودان قد خدم المصالح الاقتصادية لليهود الذين استقروا في بلد لملم، بالقرب من مناجم الذهب، وبالتالي تمكنوا من التواصل مع الجاليات اليهودية الأخرى في الشمال، وخاصة**

(1) Abitbol, Michel: Op.cit, pp.187, 188.
(2) Ibid, p.189.
(3) Oliel, Jacob: Juifs et Noirs, p.27.
مسعود كواتي: اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، دار هومة للنشر، ٢٠٠٠، ص١٢.
(4) Oliel, Jacob: Juifs et Noirs, p.28.

في توات"[١]. ويذهب أوليئيل بعيدًا في استنتاجاته فيقول بأن الذهب كان سبب وصول العرب المسلمين إلى هذه المناطق رغبة منهم في القضاء على المنافسين اليهود المتمرسين في صياغة الذهب والتجارة فيه بالقرب من مواقع الاستخراج؛ قمنورية، وليمي، ولملم، وغيرها[٢].

وذهب أوليئيل إلى أن اليهود ولا سيما يهود توات، هاجروا جنوبًا إلى بلاد السودان؛ نتيجة الحملة التي قادها ضدهم الشيخ المغيلي عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، واختاروا سكنى بلاد السودان نتيجة العلاقات التجارية التي كانت تربطهم بها، وعملوا في حرفٍ متنوعة[٣].

أيضًا اتفق أوليئيل مع مونتيل في القول بأن التاجر الجنوي أنطونيو مالفانت، نزل في ضيافة أحد التجار اليهود الأثرياء في توات، وهو يحيى بن يدير. كما اتفق أوليئيل معه في القول بأن يهود توات وطأت أقدامهم تنبكت من أجل التجارة، وأنهم مارسوا نشاطًا تجاريًا كبيرًا بين توات وبلاد السودان الغربي[٤].

واتخذ أوليئيل من الرواية المتعلقة باستقرار بعض اليهود في موضع مدينة تندرمة دليلاً على الاستقرار اليهودي في بلاد السودان الغربي، وأن العديد من اليهود هربوا إلى تلك المناطق بحثًا عن مأوى ومنزل جديد بين إخوانهم في الدين بعد طردهم من الأندلس والبرتغال، فأسسوا مستقرًا لهم في تندرمة[٥].

كما اتفق أوليئيل مع ناحوم سلوش حينما ذهب إلى أن ثمة أدلة آثارية تؤكد الدور اليهودي في النشاط التجاري ببلاد السودان، ويرى أوليئيل أن الحفائر الآثارية كشفت عن آثار للوجود اليهودي في توات، ومنها مقابر بعض الحاخامات اليهود، هذا بالإضافة إلى العثور على آثار تعبر عن الوجود اليهودي في مناطق أخرى بالصحراء مثل ميزاب وتافيلالت وفجيج، وغيرها[٦]، كما عُثر في توات على شاهد قبر محفور بالعبرية يعود لعام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م. أيضًا اكتشفت لوحة محفورة بالعبرية لشخص يدعى **ميمون بن شموئيل Mimoun ben Shmouel** اكتشفت في تمنطيط وتعود إلى عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م تؤكد وجود حاخامات وعلماء يهود[٧].

وأخيرًا، انفرد أوليئيل بالقول بأن هناك رسالة ضمن وثائق الجنيزة القاهرية تبرهن على الدور التجاري لليهود عبر الصحراء، هذه الرسالة مؤرخة بعام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عثر عليها ضمن وثائق الجنيزة القاهرية أرسلها

(1) Oliel, Jacob: Juifs et Noirs, p.29.
(2) Ibid, p.30.
(3) Oliel, Jacob: Les Juifs au Sahara: Le Touat au Moyen âge, p.121, Leriche, Albert: Op.cit, p.738.
(4) Oliel, Jacob: les Juifs au Sahara: le Touat au moyen age, pp.87-89, Oliel,: Juifs au Sahara, p.2.
(5) Oliel, Jacob: Les Juifs Au Sahara: le Touat au moyen age, pp.121, 122.
(6) Ibid, p.145.
(7) Oliel: Juifs et Noirs, p.2.

التاجر اليهودي إسحاق بن إبراهيم التواتي وتتضمن معلومات عن تجارة القوافل المكثفة التي كانت تمر عبر توات وتصل إلى مراكش وإلى الفسطاط وتتحدث عن السلع المتداولة من زعفران وذهب وفضة[١].

يتضح مما سبق أن أوليئيل جمع كل الأدلة التي استند إليها سابقوه في الترويج للأطروحة. كما إنه وجه اهتمامه للبحث عن أي آثار تبرز وجود اليهود ودورهم في أفريقيا، ولهذا الغرض زار مالي والنيجر والسنغال وموريتانيا منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين، والتقى ببعض مسلمي تلك الدول، ثم تحدث عن جمعه لروايات شفهية تشير إلى أن أصولهم يهودية، وأن عاداتهم وتقاليدهم تتشابه مع العادات والتقاليد اليهودية[٢].

لقد أفرزت تلك المساعي اليهودية نتائج بالغة الخطورة، بظهور أحد الأبواق المروجة للأطروحة من الأفارقة؛ لمحاولة إضفاء مزيد من المصداقية عليها، ففي عام ١٩٩٩ يطل علينا باحث من جمهورية مالي يُدعى **إسماعيل ديادي حيدرة Ismael Diadié Haïdara أو "إسماعيل اليهودي"** كما يسميه بعض الماليين، ويؤلف كتابًا عنوانه "**اليهود في تنبكت: مجموعة من المصادر المكتوبة المتعلقة بالتجارة اليهودية في تنبكت خلال القرن التاسع عشر Les Juifs À Tombouctou: Recueil Des Sources Écrites Relatives Au Commerce Juif À Tombouctou Au XIXe Siècle**". والأخطر من ذلك أنه قبل تأليفه هذا الكتاب قام في عام ١٩٩٣ بجمع بعض العائلات المالية وأسس جمعية تسمى **زاخور Zakhor (أي "تذكر "بالعبرية)**، طالبت بالانضمام لإسرائيل، معلنة عن أصولها العبرية من خلال إعادة سرد العديد من الأساطير والخرافات المتعلقة بالوجود اليهودي في الصحراء الكبرى وإفريقيا جنوب الصحراء، مع المطالبة بإعادة كتابة تاريخ المنطقة[٣].

ويزعم إسماعيل حيدرة بأن بعض الأسر اليهودية التي فرت من أيبيريا على أثر الطرد من إسبانيا استقرت في تنبكت وعملت بالنشاط التجاري عبر الصحراء[٤]، واستدل على ذلك برواية الوزان حول عداء الأسكيا لليهود في تنبكت[٥]. وزعم حيدرة أن تلك الأسر اليهودية تحولت إلى الإسلام، لأنه فُرض عليها الاختيار بين

(1) Oliel: Juifs et Noirs, pp.2,3.
(2) Akadem: Le campus numérique juif: https://akadem.org/fiche_conferencier.php?id=24818
(3) Ba, Idrissa: Continuité ou discontinuité de la présence juive à Walâta et dans le Sahel ouest-africain du XVe au XIXe siècle, Outre-Mers, T. 96, N° 358-359, 2008, p.184, Benson, Tony: Jews in Timbuktu, The Testimony Magazine, January, 30, 2000, p.30.
(4) Haïdara, Ismael Diadié: Op.cit, pp.22-33, Levi, Janice: Op.cit, p.116.
(5) BA, Idrissa: La problématique de la présence juive au Sahara, pp.258, 259.

"**السيف والقرآن**"؛ فأسلموا لكي يأمنوا على أنفسهم[١]، وأُجبر الكثيرون منهم على التحول إلى الإسلام في عهد أسكيا محمد، الذي أنهى الوجود اليهودي في السودان الغربي[٢].

في عام ٢٠٠٨ شاركت الباحثة الفرنسية اليهودية **إديث برودر Edith Bruder** في الترويج للأطروحة في كتاب بعنوان: "**يهود أفريقيا السود: التاريخ والدين والهُوية The black Jews of Africa: history, religion, Identity**". أوردت برودر في هذا الكتاب الأدلة التي ساقها سابقوها، وأضافت دليلاً جديدًا استدلت به على دور اليهود في التجارة ببلاد السودان الغربي، ويتمثل هذا الدليل في رواية الرحالة الألماني **ڤالنتيم فرناندیز Valentim Fernandes** (المتوفى بعد عام ٩٢١هـ/١٥١٦م)[٣] الذي أورد رواية على لسان **جواو رودريغيز Joâo Rodrigues**[٤] فحواها وجود جالية يهودية في مدينة ولاتة خلال عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م[٥]. يقول فرناندیز "**في هذه المدينة، هناك اليهود، الأغنياء جدًا ولكنهم مظلومين جدًا، وهم إما تجار متجولون أو صاغة ذهب أو جواهريون**"[٦]. وبناء على هذه الإشارة ذهب البعض إلى استقرار الصاغة والتجار اليهود في ولاتة مع مطلع القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، ثم دفعهم التحول في أنماط التجارة إلى هجرتهم إلى مدينة تنبكت. أيضًا يرى البعض أن الثروة الكبيرة التي جمعها اليهود لم يكن مصدرها صياغة الذهب فقط، وإنما يرجع إلى مشاركتهم في التجارة عبر الصحراء على الأقل بين توات ومنحنى نهر النيجر خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[٧].

ومن أحدث مروجي الأطروحة الباحثة اليهودية **جانيس ليفي Janice Levi** في مقال نُشر عام ٢٠١٦، بعنوان "**ما وراء عباءة الصحراء: الكشف عن الهوية اليهودية جنوب المغرب والصحراء Beyond the Saharan Cloak: Uncovering Jewish Identity from Southern Morocco and throughout the Sahara**". لقد عرضت ليفي باختصار بعض أدلة استقرار اليهود ودورهم التجاري ببلاد

---

(1) Haïdara, Ismael Diadié: Op.cit, p.29.

(2) Andriamirado, Sennen: Juifs, noirs, et maliens, Jeune Afrique 1879 (8–14 January), 1997, p.21.

(3) Bruder, Edith: The Black Jews of Africa: History, Religion, Identity, Oxford university press, New York, 2008, pp. 110-111.

(٤) كان المصدر الرئيس لمعلومات فرناندیز حول ولاتة هو ضابط ومستكشف برتغالي يدعى جواو رودريغيز الذي زار جزيرة أرجوين ودخل الصحراء الغربية عام ١٤٩٣ بناء على تكليف من الملك جون الثاني وبقي هناك لمدة عامين.

Fernandes: Description de la côte occidentale d'Afrique, Th. Monod, A. Teixeira da Mota et R. Mauny, Centro de Estudos da Guiné Portuguesa, 1951, pp. 53, 136, Ba, Idrissa: Continuité ou discontinuité de la présence juive à Walâta, p.152.

(5) Fernandes: Op.cit, pp. 53, 136.

(6) Ibid, p. 85, Ba, Idrissa: Continuité ou discontinuité de la présence juive à Walâta, p.153.

(7) Prussin, Labelle: Judaic threads in the West African tapestry: No More Foreever?, The Art Bulletin, Vol. 88, No. 2, Jun., 2006, pp. 339, 340, Ba, Idrissa: Continuité ou discontinuité de la présence juive à Walâta, p. 176.

السودان الغربي وخصوصًا هجرة بعض الأسر اليهودية من أيبيريا واستقرارها في تنبكت وعملها بالنشاط التجاري عبر الصحراء[١]، ورواية استقرار اليهود بموضع مدينة تندرمة[٢]، ورواية الحسن الوزان عن عداء الأسكيا محمد لليهود، والتي جعلت ليفي تزعم بأن اضطهاد اليهود امتد إلى الحافة الجنوبية للصحراء وبلاد السودان الغربي[٣]؛ لأن المغيلي أجبر الأسكيا على القضاء على اليهود وتخييرهم بين الإسلام أو الموت[٤].

لكن ليفي لم تكتف بمجرد الحديث عن الدور التجاري لليهود عبر الصحراء، وإنما تطالب بمزيد من البحث في مفاهيم الهوية اليهودية في بلاد السودان الغربي، والممارسات الدينية، والحديث عن الوجود اليهودي بشكل عام[٥]. وتبرر ليفي ندرة المعلومات عن اليهود في بلاد السودان بأنهم أخفوا هويتهم الدينية، وأعلنوا تحولهم إلى الإسلام عقيدة الأغلبية بسبب خوفهم من النبذ والاضطهاد[٦].

يظهر مما سبق تكرار الأدلة التي ساقها الممهدون للأطروحة خلال مرحلة الترويج لها، مع إضافة بعض الأدلة خلال تلك المرحلة، وتنحصر الأدلة الجديدة للمروجين في خمسة أدلة، **الأول:** الاستناد لرواية الإدريسي، **والثاني:** الاستدلال برسالة التاجر الجنوي أنطونيو مالفانت، **والثالث:** الاستدلال بالنصوص الحاخامية، ويتمثل **الدليل الرابع** في الاستدلال بوثائق الجنيزة، أما **الدليل الخامس والأخير** فهو الاستدلال برواية ڤالنتيم فرناندیز.

ثانيًا– تفنيد الأدلة والآراء القائلة بدور اليهود في التجارة عبر الصحراء:

وسوف نفند هذه الأدلة ونناقشها حسب أقدميتها، ولهذا نبدأ بمسألة الهجرات اليهودية.

١– الاستدلال بالهجرات اليهودية:

يظل الحديث عن وصول هجرات يهودية إلى بلاد السودان الغربي مجرد افتراضات لا يدعمها أي دليل سواء في المصادر المخطوطة أم المطبوعة أم الدراسات الآثارية، فبالنسبة لمزاعم لوشاتلييه حول هجرة يهود يثرب، ويهود خيبر إلى بلاد السودان الغربي فالمصادر الإسلامية لم تقدم أية إشارة مطلقًا تفيد بوصول اليهود إلى تلك البلاد. وإنما تجمع هذه المصادر على أن اليهود بعد نقضهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) Levi, Janice: Op.cit, pp.111, 116.
(2) Ibid, p.117.
(3) Ibid, pp.120, 121.
(4) Hunwick, John: Sharī'a in Songhay: The replies of Al-Maghīlī to the questions of Askia Al-Hājj Muhammad, Published for the British Academy by the Oxford University Press, Oxford, 1985, p.42, Levi, Janice: Op.cit, p.121.
(5) Levi, Janice: Op.cit, p.112.
(6) Ibid, p.113.

ومحاربتهم له، أجلى بعضهم مثل بني قينقاع عام ٢هـ/٦٢٣م[١] الذين نزلوا بأَذْرِعَات في أطراف الشام[٢]، كما أجلى بني النَّضِير إلى خيبر في عام ٤هـ/٦٢٥م[٣]، وأقر يهود خَيْبَر بأرضهم مقابل نصف زروعهم وثمارهم[٤] بعد انتصاره عليهم عام ٧هـ/٦٢٨م[٥]. وظلوا على هذا الحال حتى أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) رضي الله عنه إلى تَيْمَاء وأَرِيحَا من أرض الشام[٦]. إذًا فحديث لوشاتلييه ومن وافقه رأيه عن وصول هجرات يهودية لأفريقيا جنوب الصحراء ولبلاد السودان الغربي تحديدًا وإسهامهم بدور حضاري مهم هناك، مجرد مزاعم من وحي خيال من روجوا لها، ولا يوجد ما يعضدها في المصادر.

كما إن المصادر الإسلامية في القرون التالية لا تحدثنا عن أي من هذه الهجرات اليهودية، وعلى سبيل المثال فمنذ القرن الثالث للهجرة يشير **ابن خرداذبة** (المتوفى حوالي عام ٣٠٠هـ/٩١٢م) إلى الهجرات والرحلات التي قام بها التجار اليهود -الذين أطلق عليهم اسم "**الراذانية**"- من المشرق إلى المغرب ووصلوا إلى الصين وإلى أوروبا[٧]. وهنا يطرح **ريموند موني Raymond Mauny** سؤالًا في غاية الأهمية: لماذا لم يورد لنا ابن خرداذبة أي إشارة عن هجرة يهودية وصلت إلى السودان الغربي؟ ولماذا لم يحدثنا أي من الجغرافيين والرحالة المسلمين عن ذلك؟[٨].

وفيما يتعلق بالمزاعم الخاصة بوصول هجرات سورية إلى بلاد السودان الغربي فلم يقدم صاحب هذا الرأي أي دليل يبرهن على صحته، ومن أين استقى مزاعمه[٩].

---

[١] ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص٤٨.

[٢] الواقدي: كتاب المغازي، حققه مرسدين جونس، عالم الكتب، د.ت، ج١، ص١٧٩-١٨٠.

[٣] المصدر السابق، ج٢، ص٦٣٤؛ ابن هشام: السيرة النبوية، حققه مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥، ج٢، ص١٩٠، ١٩١؛ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة ببيروت ومكتبة المنار بالكويت، الطبعة ٢٧، ١٩٩٤، ج٣، ص٢٨١.

[٤] ابن هشام: مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٧؛ أبو القاسم السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٢هـ، ج٦، ص٥٣٢؛ ابن قيم الجوزية: مصدر سابق، ج٣، ص ٢٨٩، ٢٩٠، ج٥، ص٦١، ٦٢.

[٥] الواقدي: مصدر سابق، ج٢، ص٦٣٤؛ ابن هشام: مصدر سابق، ج٢، ص٣٤١.

[٦] الواقدي: مصدر سابق، ج٢، ص٦٣٤؛ أبو القاسم السهيلي: مصدر سابق، ج٦، ص ٢٣٤، ٥٣٣؛ ابن قيم الجوزية: مصدر سابق، ج٣، ص١٣٨.

[٧] المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدن، ١٨٨٩، ص١٥٣، ١٥٤.

[8] Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age, p.460.

[9] Delafosse, Maurice: Op.cit, Vol.1, pp. 207-226; Vol.II, pp. 22-25.

ورغم ذلك يزيف دولافوس الحقائق ويزعم بالأصل اليهودي لملوك غانة الأوائل[١]. ولكن بالرجوع للمصادر المحلية السودانية نجد أن **عبد الرحمن السعيدي** في حديثه عن غانة وملوكها لم يشر مطلقًا إلى كونهم يهودًا وإنما صرح بأنهم كانوا من البيض. من ثم لا توجد أدلة موثوقة لقبول هذا الزعم[٢].

أما أولئك الذين تحدثوا عن وصول هجرات يهودية إلى بلاد لملم استنادًا لرواية الإدريسي، فإنه لا يمكن قبول هذا الاستنتاج، فجميع المصادر أكدت أن أهل لملم "**سود وثنيون**"، وأنهم يأكلون لحوم البشر[٣]. في ضوء ذلك انتهى موني إلى القول بأنه ليست هناك أية إشارة في المصادر المتاحة تتحدث عن أي تقليد أو أصل يهودي لأهل تلك البلاد، كما إن ممارسة الطقوس والندوب القبلية والمتمثلة في كي الوجه بالنار تؤكد أن هؤلاء القوم أرواحيون[٤] سود وليسوا يهودًا، كما إنه ليس هناك ما يؤكد وصول هجرات يهودية قديمة إلى السودان الغربي، وبالتالي يجب عدم قبول هذه المزاعم[٥].

وبالاطلاع على المصادر المتاحة نرى أن الوجود اليهودي كان واضحًا في شمال الصحراء الكبرى لا سيما في مدينة توات التي استقر بها جالية يهودية وسط أغلبية مسلمة، أما في جنوب الصحراء وتحديدًا في بلاد السودان الغربي فقد اقتصر وجودهم على مدينة ولاتة وفق إشارة الرحالة الألماني ڤالنتيم فرناندیز. وعلى هذا لا يمكن قبول مزاعم التأثير الكبير لليهود في التجارة عبر الصحراء. فقد كان العنصر الإسلامي –سواء من العرب أم البربر– هو المتسيد في الصحراء وفي بلاد السودان[٦]، ولا عبرة إذًا بالمزاعم التي روج لها

---

(1) Delafosse, Maurice: Op.cit, Vol.1, pp. 207-226; Vol.II, pp. 22-25.

(٢) بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، نقله إلى العربية الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط٢، ١٩٨٨، ص١٠٤.

(٣) ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان كرميظ خيديس، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٨، ص٢٤؛ العمري: مصدر سابق، ج٤، ص٥٠؛ ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧، ج٤، ص٢٦٨، ٢٦٩؛ ابن خلدون: مصدر سابق، ج١، ص٧٠؛ بشار الملاح: التحولات التي أحدثها الإسلام في المجتمع الأفريقي من القرن ٥–٩هـ/١١–١٥م، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٢، ص٩٧.

(٤) أُطلق على المعتقدات المحلية في أفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الإسلامي اسم "الأرواحية"، أو "الإحيائية" ويتلخص مضمونها وفقًا لاعتقاد معتنقيها في أن أرواح الأسلاف حلت في كل الموجودات، فقد توجد في الأشجار، والجبال، والأحجار، والماشية، والنباتات، وغيرها. انظر. Delafosse, Maurice: Op.cit, Tom III, pp.165-166

بطل شعبان محمد: الأسطورة والتاريخ في السودان الغربي (٦٢٨–١٠٠٠هـ/١٢٣٠–١٥٩١م)، حولية كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، العدد ٣٣، أكتوبر ٢٠٢٠، ص٢٤٦٠.

(5) Tableau géographique, pp.459, 460.

(6) Ibid, p.460.

البعض مثل **دو لارونسيير De La Ronciére, Charles** الذي تحدث عن "**حقبة يهودية في الصحراء**"[١].

٢- تفنيد الاستدلال بأسطورة إلداد الداني:

من المعلوم أن إلداد الداني كان يؤصل لفكرة العودة إلى أرض الميعاد؛ فكان يراسل اليهود شرقًا وغربًا مستغلاً ما يملكه من بلاغة وخيال ليصور لهم مدينة اليهود الفاضلة، ويروي مشاهداته عن القبائل العشر المفقودة لليهود ويدَّعي رؤيتهم رأي العين، ويسجل أماكن وجودهم ويسوق في سبيل ذلك روايات كاذبة وخيالية، وبالتالي فإن روايات الداني ما هي إلا أساطير يغلب عليها الخيال. والغريب أن تلك الأساطير ما زال بعض اليهود يرددها، بل ويعتمد عليها الكيان الصهيوني في وقتنا الراهن، وهذه الأساطير ألهمت خيال اليهود بحكايات عن الوطن المفقود[٢].

لقد حاول البعض -وفي مقدمتهم ناحوم سلوش- التدليس وتزييف الحقائق باتخاذ هذه الأسطورة دليلاً على أن المملكة اليهودية التي تحدث عنها الداد الداني هي مملكة أودغست الصحراوية، رغم تأكيد المصادر واتفاقها على أنها مملكة إسلامية[٣]، أسستها قبيلة لمتونة الصنهاجية، وكان تكلان أو تلاكاكين (توفي عام ١٥٧هـ/٧٧٣م على الأرجح[٤]) أحد أبرز ملوكها خلال القرن الثاني للهجرة، ويؤكد ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) أنه كان مسلمًا وكان يجاهد أمم السودان لنشر الإسلام بينها[٥]. فكيف يمكن القول دون سند أو دليل بأن هذه المملكة كانت يهودية!

أما فيما يتعلق بزعم سلوش بأن تكلان هو زعيم خيبر استنادًا لكتاب العدواني[٦] فهذا غير صحيح، لأمرين؛ الأول أن تكلان ملك أودغست حكم خلال القرن الثاني للهجرة، أي بعد ما يزيد عن القرن ونصف

---

(1) La découverte de l'Afrique au Moyen Age. Cartographie et explorateurs. Le Caire, Soc. roy. de Géogr. d'Égypte, Vol. 1, 1925, pp. 129- 139.

(2) Neubauer, A.: Where are the ten tribes? Eldad the Danite, in: J. Q. R., vol. 1, No.2 (Jan., 1889), University of Pennsylvania Press, 1889, pp. 95 – 99.

إيمان خلاوي: رحلة إلداد الداني بين الحقيقة والأسطورة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الحادي والثلاثون، الجزء الثاني، ٢٠١٩، ص ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) للمزيد حول هذه المملكة وتاريخها، يُرجع إلى؛ حسين مراد: دولة أودغست الإسلامية، ص ١٠٦- ١٥١.

(٤) رغم أن ابن خلدون لم يحدد تاريخ توليه حكم أودغست أو تاريخ وفاته إلا أنه يمكننا استنتاج تاريخ وفاته وانتهاء حكمه وهو عام ١٥٧هـ/٧٧٣م؛ لأن ابن أبي زرع يحدثنا عن وفاة ابنه وخليفته في الحكم وهو تلوتان عام ٢٢٢هـ بعد أن دام حكمه لخمس وستين عامًا. انظر الأنيس المطرب، ص١٥٣؛ العبر، ج٦، ص٢٤١؛ حسين مراد: دولة أودغست، ص١١٥.

(٥) العبر، ج٦، ص٢٤١؛ حسين مراد: دولة أودغست، ص١١٤- ١١٦.

(6) Hébraeo-phéniciens et Judéo-Berbères, p.468, Monteil, Ch.: Op.cit, p.275.

من الزمان على حرب المسلمين ضد يهود خيبر عام ٧هـ فكيف يكون هو الذي تزعم يهود خيبر[١] في تلك الحرب؟ الأمر الثاني أن العدواني –وهو متأخر من أهل القرن ١٧م– أورد رواية شفهية غريبة انفرد بها وحده، تقول: "**وأما أهل الصحراء فهم من نسل سيز جوج بن طيراق اليهودي، أصل مسكنهم خيبر**"[٢]. وبهذا يتضح أن العدواني لم يشر مطلقًا إلى تكلان وإنما تحدث عن سيز جوج بن طيراق اليهودي الخيبري. والذي أشار إلى تكلان هو شارل فيرو المترجم الفرنسي الذي ترجم كتاب العدواني إلى اللغة الفرنسية، فقد علق في الحاشية ص٢٦ من الكتاب قائلاً إن أول من حكم في الصحراء هو بيلوتان بن تكلان القيرواني[٣]. وشارل فيرو هنا يتحدث بشكل عام عمن حكم أودغست وفقًا لما ذكرته المصادر الإسلامية. وبالتالي نسب ناحوم سلوش متعمدًا ما ذكره شارل فيرو في الهامش إلى متن الكتاب الذي ألفه العدواني.

٣– تفنيد الاستدلال برواية الإدريسي الخاصة بيهود قمنورية ولملم:

بادئ ذي بدء نسجل أن **الإدريسي** (المتوفى عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م) انفرد بهذه الرواية دون سابقيه من الجغرافيين من أمثال **المسعودي** (المتوفى عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، **وابن حوقل** (المتوفى عام ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، **والبكري** (المتوفى عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، ولا وجود لها أيضًا عند **الزهري** (الذي كان معاصرًا للإدريسي، وكان حيًا عام ٥٣٢هـ/١١٣٦م)، وهم أبرز الجغرافيين الذين اهتموا بالكتابة عن بلاد السودان. من ثم فإن قمنورية وسكانها من اليهود لم يرد ذكرها عند هؤلاء الجغرافيين، فمن أين استقى الإدريسي معلوماته عن قمنورية؟

من المعلوم أن الإدريسي جغرافي، وبناء على ذلك لم يعتمد على المعاينة أو المشاهدة الشخصية في المعلومات التي أوردها عن بلاد السودان، وإنما اعتمد على روايات بعض الرحالة والتجار الذين ارتادوا تلك البلاد[٤]، بالإضافة إلى نقله عن بعض كتب الأقدمين، ومنها كتاب **بطليموس الإقليدي** الذي حذا حذوه في الحديث عن الإقليمين الأول والثاني اللذين يضمان ما عُرف ببلاد السودان الغربي؛ ونتيجة ذلك فقد شاركه

---

[١] أوردت المصادر أسماء أبرز زعماء يهود خيبر، ولم يرد بها اسم تكلان مطلقًا، فزعماء اليهود الذين ورد ذكرهم في المصادر هم: سلام بن أبي الحُقَيْق وكنيته "أبو رافع"، وأُسَيْر بن زارم، وسلام بن مشكم، ومرحب بن الحارث وكنيته "أبو زينب اليهودي"، وياسر بن الحارث، وعامر، ويُوشَع، والديَّال، وعزول، وهَوْذَة بن قيس، والربيع بن أبي الحُقَيْق، وكِنَانَة بن أبي الحُقَيْق الذي طلب الصلح من النبي صلى الله عليه وسلم مقابل نصف الزروع والثمار. انظر، الواقدي: مصدر سابق، ج٢، ص ٦٣٧، ٦٤٠، ٦٥٢، ٦٥٧؛ ابن هشام: مصدر سابق، ج١، ص٥٦١، ج٢، ص٢٧٣.

[٢] تاريخ العدواني، ص٧٩.

[3] Féraud, L. Ch.: Kitab El Adouani ou Le Sahara de Constantine et de Tunis, L. Arnolet, Libraire-Éditeur, rue du Palais, Alger, Paris, 1868, p.26.

[٤] في حديثه عن مدينة أودغست يقول الإدريسي: "وأخبر بعض الثقات من متجولي التجار إلى بلاد السودان....". انظر: نزهة المشتاق، ج١، ص٨٢.

بعض الأخطاء التي وقع فيها أثناء الحديث عن بعض البلدان الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى[١]. وقد نقل الإدريسي مسمى قمنورية عن بطليموس، الذي أطلق هذا المسمى على شعب الجارامنت الذين هاجروا من جرمة في ليبيا وأسسوا بعض الممالك في الصحراء، واستقروا في منطقة أدرار في شمال غرب موريتانيا الحالية وتركوا رسومًا هناك تعبر عنهم[٢].

وثمة مسألة أخرى مهمة تسترعي الانتباه، تتمثل فيما أشار إليه مونتيل بأن الإدريسي جمع معلوماته حول التجارة عبر الصحراء ويهود قمنورية خلال فترة إقامته في مدينة أغمات وريكة بالمغرب الأقصى، فقد كانت مدينة أغمات في زمن الإدريسي منقسمة إلى قسمين؛ الأول مسلم، وهو أغمات وريكة، والثاني هو أغمات إيلان الذي سكن به مع المسلمين جالية يهودية[٣]. وقد شهدت أغمات أكبر ازدهار تجاري لها في عصر المرابطين فكانت هي عاصمتهم قبل تأسيس مراكش، وقد أعان على هذا الازدهار سيطرة المرابطين على بعض المدن التجارية المهمة في بلاد السودان الغربي. في ضوء ذلك رجح مونتيل أن الإدريسي حصل على معلوماته من التجار اليهود في أغمات بهدف الدعاية لليهودية[٤].

نتفق مع مونتيل فيما ذهب إليه، فمن المرجح أن رواية الإدريسي عن يهود قمنورية هي مجرد دعاية روَّج لها تجار أغمات من اليهود ونقلها الإدريسي عنهم، ولكن يلاحظ أن الإدريسي نفسه حين تحدث عن أهل أغمات ذكر منهم أهل أغمات وريكة من البربر المسلمين من قبائل هوارة بقوله: "**وهم أملياء تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع**"[٥]. وهذا يعني أن أهل أغمات وريكة من المسلمين هم الذين اختصوا بالوجهة الجنوبية

---

[١] أحمد بن محمد الشبعان: منهج الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" دراسة جغرافية، مجلة التاريخ العربي، تصدر عن جمعية المؤرخين المغاربة، العدد٤٥، ٢٠٠٨، ص١٠٠، ١٠١، ١٠٨، ١١٤، ١١٥.

اعتمد الإدريسي أيضًا على بطليموس الإقليدي عند وصفه لقبائل الزنج في شرقي أفريقيا، خاصة آكلي لحوم البشر، انظر، إبراهيم عبد المنعم سلامة: ملامح المجتمع ببلاد الزنج كما صورها الجغرافيون والرحالة المسلمون بين القرنين الرابع والسابع الهجريين، ضمن كتاب "دراسات في تاريخ شرق أفريقيا الإسلامية بين القرنين الرابع والثامن الهجريين/ العاشر والرابع عشر الميلاديين"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٧، ص٢٢، ٧٢.

[٢] انظر ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحرير وتقديم حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٤، هامش رقم ٢ للمحرر، ص٧٣.

[٣] الإدريسي: مصدر سابق، ج١، ص٢٣٥.

[4] Monteil, Ch.: Op.cit, pp.273, 274.

[٥] نزهة المشتاق، ج١، ص٢٣٢.

للتجارة عبر الصحراء، أي أنهم هم الذين قطعوا تلك الصحراء حتى بلاد السودان. فإذا كان يهود أغمات إيلان أو يهود قمنورية لهم دور في النشاط التجاري داخل بلاد السودان، فلماذا لم يفصح عنه الإدريسي، مثلما تحدث عن دور تجار أغمات وريكة؟

وفضلاً عما سبق، لم يشر البكري لمثل هذا الوجود أو الدور التجاري لليهود في قمنورية أو بلاد السودان الغربي رغم أنه يعد أهم مؤلف جغرافي تحدث عن تلك البلاد خلال القرن الخامس للهجرة، كما إن الزهري أيضًا لم يتحدث عن ذلك خلال القرن السادس للهجرة. لقد انتظرنا حتى القرن الثامن للهجرة حين نقل كل من **العمري** (المتوفى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) **والحميري** (من أهل القرن الثامن للهجرة)[١] رواية الإدريسي عن قمنورية وسكانها، لكن مُؤَلِّفينا الثلاثة استخدموا عبارات تؤكد ارتيابهم في كون أهل قمنورية يهودًا، بل وتفصح عن شكهم في تلك الرواية التي نقلوها، فالإدريسي يقول: "**وأهل بلاد قمنورية فيما يذكره التجار يَدَّعُون أنهم يهود، وفي معتقدهم تشويش**"[٢]، أما العمري فيقول: "**وأرض قمنورية كان بها من السودان أمة تزعم أنها يهود**"[٣]، في حين يقول الحميري: "**وأهل بلاد قمنورية يذكر التجار أنهم يهود**"[٤]. إن هذه الإشارات جعلت موني يعارض فكرة أن سكان قمنورية كانوا يهودًا، واستنتج أنهم وثنيون ادعوا اليهودية، مستدلًا على ذلك بما ورد في النص من استخدام لعبارات "**يدعون**"، و "**في معتقدهم تشويش**" أي خلطهم بين اليهودية والوثنية[٥].

ولو افترضنا اعتناق أهل قمنورية لليهودية، فإن ما ورد في رواية الإدريسي التي تهافت عليها المؤيدون لدور اليهود التجاري في بلاد السودان ينفي تلك المزاعم المروجة لهذا الدور، فالرواية تشير إلى أن أهل قمنورية كانوا "**ممحونين**" أي منبوذين من جميع الطوائف والجماعات المجاورة لهم، وأن عيشهم من الألبان والأسماك، "**وهم في نكدٍ من كد العيش وضيق الحال**". كما إن الفتن توالت عليهم فأفنتهم، وتعرضوا لكثير من الغارات التي اضطرت بعضهم للاعتصام في الجبال، وفر بعضهم الآخر وتفرقوا في الصحاري[٦]. ثم إن الإقليم الثاني الذي تقع قمنورية ضمن حدوده وُصفت بلاده بأن "**ماؤها قليل وسالكها عزيز**"[٧]، بل إن الطرق الرابطة بين قمنورية وغيرها من جهات بلاد السودان مثل تكرور، وسلي، وأزقي لم تكن مؤهلة تمامًا

---

[١] الروض المعطار في خبر الأقطار، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠، مقدمة المحقق إحسان عباس، ص٢.

[٢] نزهة المشتاق، ج١، ص٨٠.

[٣] مسالك الأبصار، ج١، ص٤٣٩.

[٤] الروض المعطار، ص٤٨٨.

[5] Mauny, Raymond: Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale, Bulletin de l'institut Français d'Afrique Noire, T. XI, 3-4, 1949, pp. 262, 263.

[٦] نزهة المشتاق، ج١، ص٨٠، ٨١؛ الحميري: مصدر سابق، ص٤٨٨.

[٧] انظر العمري: مصدر سابق، ج١، ص٤٣٩.

لسير القوافل التجارية، ولذلك فإن هذه الطرق حسب وصف الإدريسي: "**مجهولة الآثار دارسة المسالك، قليلة السالك، ماؤها غائر، وعلامتها خفية**"[١]. فهل هذه الوضعية التي كانت عليها أرض قمنورية وسكانها هيأت لليهود –إذا سلمنا بصحة رواية سكناهم لها– الفرصة لممارسة نشاط تجاري مزدهر، نافسوا به التجار المسلمين؟

أما فيما يتعلق بالجزء الثاني من رواية الإدريسي عن يهود بلاد لملم، فالإدريسي يؤكد أن دو وملل مدينتان صغيرتان كالقرى تابعتين لبلاد لملم[٢]. وهو ما يعني أن المقصود بملل ليس مملكة مالي على نحو ما ذهب إليه المروجون للأطروحة.

أضف إلى ذلك أنه رغم نقل بعض المصادر عن الإدريسي قوله بأن أهل لملم كانوا يهودًا[٣]، إلا أن المصادر نفسها أشارت أيضًا إلى أنهم كان يغلب عليهم "**الكفر والجهالة**"، وأن من عادتهم إذا بلغ أحدهم "**وسم وجهه وصدغاه بالنار**"[٤]. وقال عنهم ابن خلدون إنهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم بالنار[٥]. وتلك الأوصاف تبرهن على أن أهل لملم كانوا وثنيين وليسوا يهودًا.

يدعم هذا الاستنتاج ما أشارت إليه المصادر بأن أهل لملم كانوا عرضة لغارات جيرانهم من أهل غيارة[٦]، وبريسي، وسلي، وتكرور، وغانة الذين كانوا يسبون أهل لملم الوثنيين ويبيعونهم رقيقًا[٧]. فمن المعروف أن أغلب وثنيي بلاد السودان كانوا في حالة عداء مع المسلمين، فدأبوا على مهاجمة المدن والممالك الإسلامية التي كانت بدورها تعيد الكرة عليهم، وتأسر من استطاعت منهم[٨].

---

[١] نزهة المشتاق، ج١، ص٨١.

[٢] المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٩.

[٣] ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص٩١، ٩٢؛ الحميري: مصدر سابق، ص٥١١.

[٤] ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص٩١، ٩٢؛ الحميري: مصدر سابق، ص٥١١.

[٥] العبر، ج١، ص٧٠؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، حققه جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت، ج٥، ص١٣٣.

[٦] الإدريسي: مصدر سابق، ص٢٤.

[٧] المصدر السابق، ص١٩؛ ابن سعيد: بسط الأرض، ص٢٤؛ ابن خلدون: مصدر سابق، ج١، ص٧٠؛ الحميري: مصدر سابق، ص٥١١.

[٨] ابن سعيد: بسط الأرض، ص٢٤؛ أحمد بابا: كتاب الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، مخطوطة بمعهد أحمد بابا التنبكتي، مدينة تنبكت، مالي، تحت رقم ٢٥، ورقة ١١، ١٢.

وحتى لو سلمنا بأن أهل لملم كانوا يهودًا كما ذهب البعض، فإن وضعيتهم التي يُفصح عنها النص السابق تجعل تفاعلهم مع حركة التجارة عبر الصحراء وإسهامهم فيها أمرًا بعيد المنال. ورغم ما ساقه أوليئيل من مزاعم وتصورات حول دور يهود لملم ومالي في التجارة عبر الصحراء، فإنه يعترف بتأزم وضعية هؤلاء اليهود نتيجة تعرضهم لهجمات جيرانهم، ووقوعهم في الأسر؛ ومن ثم تدهور وضعهم وهروب الكثيرين منهم، ولجوءهم إلى الجبال، وتشتتهم في الصحراء، ووقوعهم تحت تبعية جيرانهم. وأقر أوليئيل كذلك بأنه لم يتبق من سكان قمنورية سوى مجموعة صغيرة من الناس الذين تفرقوا بين الصحاري، وعاشوا على اللبن والأسماك، وكانت حياتهم صعبة ومحفوفة بالمخاطر[١]. ونسأل أوليئيل ومن وافقه استنتاجه: هل في مثل هذه الظروف يمكن لأهل لملم ممارسة نشاط تجاري متميز عبر الصحراء؟

وحتى يتجاوز بعض الزاعمين بوجود اليهود ودورهم التجاري في بلاد السودان هذا المأزق، فإنهم قرروا الاستهانة بشهادات البكري ومؤلفه ذي الثقل الكبير في تاريخ بلاد السودان، مقابل تزكية شهادات الإدريسي، فذهب مونتيل إلى أن الإدريسي كان أكثر تميزًا عن سابقه البكري؛ لأن الأول تنبه للصراع الديني المزعوم بين اليهودية والإسلام في بلاد المغرب وفي بلاد السودان[٢]. هذا في حين وصف أبيتبول معلومات الإدريسي حول يهود قمنورية ولملم بأنها أكثر دقة من معلومات معاصره الزهري خلال القرن السادس للهجرة[٣].

ولأنه ليس من المنطقي التسليم بصحة تلك الانتقادات التي وُجهت للبكري ومؤلفه مع مخالفتها للواقع؛ فإن أحد الباحثين اليهود وهو ويليام ويندسور لم يجد في هذا النهج ما يكفي لتجاوز تلك المعضلة، فاتبع أسلوب التدليس وقلب الحقائق والالتفاف على بعض إشارات البكري وتفسيرها تفسيرًا يخدم وجهته، فالبكري يحدثنا عن ملك غانة الوثني المدعو تنكامينين بأنه كان يحكم مملكة عظيمة، وكان مؤثرًا للمسلمين ويعتمد عليهم في إدارة شئون مملكته، وأن عاصمة تلك المملكة انقسمت إلى حيين أحدهما وثنيًا سكنه الملك وحاشيته والثاني إسلاميًا خُصص للتجار المسلمين، وضم هذا الحي اثني عشر مسجدًا[٤]. لقد حرَّف ويندسور محتوى هذا النص تمامًا، فكل إشارة تتعلق بالوثنية حرَّفها وجعلها خاصة باليهود، فزعم أن الملك الوثني تنكامينين كان يهوديًا وأن سكان الحي الوثني كانوا يهودًا، ولأن هدفه هو التدليس وصنع وجود ودور مزعوم لليهود دون أية اعتبارات أو ضوابط منهجية، فإنه وقع في عدد من الأخطاء الكارثية بخصوص الوضعية السياسية لممالك بلاد السودان، منها قوله بأن عاصمة غانة التي انقسمت إلى حيين؛ يهودي وإسلامي هي مدينة

(1) Oliel, Jacob: Juifs et Noirs en Afrique de l'Ouest, p.29.
(2) Monteil, Ch.: Op.cit, p.271.
(3) Abitbol, Michel: Op.cit, p.181.

(٤) المسالك والممالك، ج٢، ص٨٧١، ٨٧٢.

جاو[١]، والمعروف أن عاصمة غانة المقصودة هي **قُنْبِ صالح** (كُومْبِي صالح) وليست جاو التي كانت إمارة قائمة بذاتها وكانت مهدًا لمملكة صُنغي الإسلامية التي ستظهر على مسرح الأحداث خلال القرن التاسع للهجرة.

ومن بين الأخطاء الكارثية أيضًا ما أشار إليه كل من جودبي، ووبندسور، وجوزيف ويليام، وغيرهم بأن أسرة زا كانت هي الأسرة الحاكمة في غانة، وعدُّوا حكامها يهودًا. ولا يمكن بأي حال تصديق هذه الادعاءات التي لا يوجد لها أي سند في المصادر؛ فحسب رواية السعيدي المؤرخ السوداني، فإن أسرة زا حكمت مملكة صنغي وليس مملكة غانة، وظلت هذه الأسرة على الوثنية حتى إسلام الملك زَاكُسُي عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م[٢]. ورغم ذلك زعم هؤلاء –بلا دليل– أن هذا الملك تحول من اليهودية إلى الإسلام نتيجة لسيطرة المسلمين على التجارة عبر الصحراء ذات الأهمية البالغة لمملكة غانة[٣]. يقول ويندسور: "**أنا لا أدين زاكسي لاعتناقه الإسلام، في الحقيقة سأبرر أفعاله، كان المسلمون يسيطرون على الروابط التجارية الحيوية لغانة في شمال إفريقيا والصحراء وكان من الجيد أن يتم الاعتراف بأمن غانة على اعتبار أن ملكها مسلم**"[٤].

يتبين إذًا مدى تزييف هؤلاء للحقائق التاريخية، فالمصادر السودانية المحلية أكدت أن أسرة زا قبل عهد زاكسي كانت وثنية وليست يهودية كما إنها كانت واحدة من أشهر الأسر الحاكمة في مملكة صُنغي وليس غانة. أيضًا تؤكد الشواهد المصدرية على تفاعل حكام أسرة زا مع الإسلام منذ عهد الملك زاكسي، بدليل أن هذا الملك أطلق عليه "**مسلم دم**"، وهي تعني بلغة أهل البلاد أنه أسلم طوعًا بلا إكراه[٥]. كما إن شواهد القبور التي اكتشفت في موقع ساني **التي تبعد حوالي أربعة أميال عن مدينة جاو** عاصمة مملكة صنغي، أكدت أن حكام جاو تفاعلوا مع الإسلام واتخذوا ألقابًا إسلامية منذ القرن الخامس للهجرة[٦].

---

(1) From Babylon to Timbuktu, p.94.

(٢) تاريخ السودان، ص٣٥.

(3) Godbey, Allen: Op.cit, p.256, Windsor, Rudolph: OP.CIT, pp.89, 93, Williams, Joseph: Op.cit, p.228, Parfitt, Tudor: Op.cit, p.203.

(4) Windsor, Rudolph: Op.cit, p.93.

(٥) السعيدي: مصدر سابق، ص٣٥.

(٦) في عام ١٩٩٣م عُثر في منطقة ساني على مجموعة من شواهد القبور لبعض الملوك يعود تاريخها إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكتب على أحد هذه الشواهد" هنا يرقد جثمان الملك أبى عبد الله محمد الذي دافع عن دين الله وهو الآن في رعاية الله ورحمته وكان ذلك في سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م". ومن خلال الشاهد يتأكد لنا تعمق الإسلام في نفوس أهل جاو حكامًا ومحكومين، فصاحب هذا الشاهد حمل اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم تبركًا به وتأكيدًا على التمسك بسنته. وهناك شاهد قبر آخر يؤكد ما ذهبنا إليه، كتب عليه".. هذا قبر الملك الناصر لدين الله، المتوكل على الله، أبي بكر بن أبي=

ورغم اتفاق ويندسور، وجودبي على يهودية أسرة زا إلا أن ويندسور اختلف مع جودبي فيما ذهب إليه في أن هذه الأسرة من الليبيين البيض، ومن ثم استنتج ويندسور –وهو من اليهود الأمريكيين السود– أن جودبي يقلل من شأن العنصر اليهودي الأسود[١]، فهذه المملكة حسبما يزعم ويندسور –دون أي سندٍ من المصادر– تأسست على أيدي زا الأيمن وهو يهودي أسود جاء من ورقلة في جنوب الجزائر وليس من الليبيين البيض[٢]. وهذا الخلاف يكشف لنا عن تدخل الهوى في كتابات هؤلاء، واعترف ويندسور بذلك بكل وضوح حين قال بأن جودبي لم يستطع أن يكتب أن مؤسسي مملكة غانة من اليهود السود؛ لأنه كان يكتب هذا الكلام عام ١٩٣٠ لجمهور يهودي أبيض في الولايات المتحدة في ولاية نورث كارولينا، ولو إنه قال أن مؤسسي مملكة غانة من اليهود السود، لنزل عليه نقد رجال السلطة ورجال الدين كالعاصفة[٣].

٤– تفنيد الاستدلال برسالة أنطونيو مالفانت:

ينطوي كلام مونتيل وأوليئيل على مغالطة واضحة، حين ذهبا إلى أن يحيى بن يدير حاكم منطقة تمنطيط بالمغرب الأوسط كان يهوديًا، رغم عدم تصريح مالفانت بذلك، ويستدلون في زعمهم هذا بكثرة عدد اليهود في تمنطيط، وفي توات بوجهٍ عام وأن التجارة كانت تتم من خلالهم. وفي ضوء ذلك أكدوا أن يحيى بن يدير الذي استضاف مالفانت هو أحد التجار اليهود الأثرياء[٤].

وتلك مغالطة وتزييف صارخ للحقائق لسببين؛ الأول أن سكان توات كان غالبيتهم مسلمين، وارتبطوا بصلات تجارية مزدهرة مع بلاد السودان الغربي، واستقر بعضهم في تلك البلاد، وشكل التواتيون جالية مهمة في تنبكت، وجمعوا ثروات كبيرة من تجارتهم هناك، وكان لهم مسجدًا خاصًا بهم في تنبكت[٥]. أما السبب الثاني فيتمثل في أن يحيى بن يدير لم يك يهوديًا قط، والدليل أن **أحمد بابا التنبكتي** (المتوفى عام ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م) ترجم له، فهو **يحيى بن يدير بن عتيق التدلسي أبو زكريا**، أحد أبرز علماء توات في علم

= قحافة رحمه الله، توفي ليلة الجمعة، ماضي شهر رجب تسعة عشر يومًا سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م..". وبعد وفاة هذا الحاكم تولى بعده حاكم آخر في نفس العام، وأخذ اسم الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبركًا به. للمزيد، انظر:
Sauvaget: Les épitaphes royales de Gao, dans: Al-Andalus revista de las escuelas de estudios Arabes de Madrid Y Granada, Vol. XIV, Pelayo Instituto Miguel, Asian 1949, pp. 130, 135, Lange, Dierk: Les rois de Gao-Sane et Le Almoravides, The Journal of African History, Vol. 32, No. 2 (1991), p. 252.

(1) Godbey, Allen: Op.cit, p.256, Windsor, Rudolph: Op.cit, pp.145, 146.

(2) Windsor, Rudolph: Op.cit, pp.145, 146.

(3) Ibid, p.146.

(4) Oliel, Jacob: les Juifs au Sahara le Touat, pp.88, 89.

(٥) السعيدي: مصدر سابق، ص١٢٨.

De La Roncière, Ch.: Op.cit, p.15.

الفقه، وأنه تولى قضاء توات عام ٨٤٥هـ/١٤٤٥م، وهو شيخ الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي، وتوفي عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م وقد نقل أحمد بابا هذه الترجمة عن المغيلي[١]. وحسب المصادر السودانية فإن سيدي يحيى التادلسي قدم إلى بلاد السودان وتحديدًا إلى مدينة تنبكت زمن حكم الطوارق للمدينة في عهد الحاكم **محمد نض** (٨٣٧-٨٧٦هـ/١٤٣٣-١٤٧١م) الذي تلقى هذا الفقيه بالترحاب، وأكرمه وبنى له مسجدًا عُرف باسمه[٢]. ويلاحظ أن كلاً من مونتيل وأوليئيل قد غضا الطرف متعمدين عن تلك الإشارات المهمة التي أوردتها المصادر المحلية السودانية عن يحيى بن يدير، رغم أنهما لم يتركا شاردة ولا واردة في المصادر إلا وحاولوا استغلالها في تزكية مزاعمهم.

وهكذا فإن أنطونيو مالفانت نزل في ضيافة فقيه مسلم كان من أثرياء توات الذين استقروا فترة طويلة في بلاد السودان الغربي، ورغم أن الشيخ يحيى أكرم ضيفه؛ لكن يظهر أنه شك في نواياه الخاصة بجمع معلومات عن تجارة الذهب في بلاد السودان؛ وهذا يفسر ما ذكره مالفانت بشأن امتناع مضيفه عن إمداده بمعلومات كافية حول بعض الأسئلة، وخاصة تلك المتعلقة بمكان العثور على الذهب[٣].

٥- تفنيد الاستدلال بدور يهود تندرمة في التجارة عبر الصحراء:

يعد استدلال بعض الزاعمين بالدور الكبير لليهود في التجارة عبر الصحراء برواية يهود تندرمة استدلالاً يجانبه الصواب لاعتبارين، الأول أن هذه الإشارة عبارة عن رواية شفاهية متناقلة، ومشكوك في صحتها، ويغلب عليها الطابع الأسطوري فتتحدث عن أن بني إسرائيل الذين سكنوا تندرمة حفروا فيها "ثلاثمائة وثلاثًا وثلاثين بئرًا ووصل عمق بعضها إلى مائتي ذراع وكان يحكمهم سبعة ملوك من بني إسرائيل، ولكل ملك منهم جيش عرمرم مكون من اثني عشر ألفًا من الفرسان، وعدد لا يحصى من المشاة". والرواية تشير أيضًا إلى أن عمر كمزاغ أخا الأسكيا محمد قد شاهد الآبار المذكورة في عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م حينما اختار موضع تلك الآبار لإنشاء مدينة تندرمة، ولم يجد أحدًا يسكن هذا الموضع إلا رجل وزوجته[٤]. فلو صحت هذه الرواية فلماذا هجر اليهود موضع تندرمة وتركوا تجارتهم المربحة عبر الصحراء؟

---

[١] نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٨٩، ج٢، ص٦٣٧.

[٢] كعت: مصدر سابق، ص١٥٠؛ السعيدي: مصدر سابق، ص١٣٢، ١٨٣؛ البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص ٢١٧، ٢١٨.

[3] De La Roncière, Ch.:Op.cit, pp.15, 17, Oliel, Jacob: les Juifs au Sahara le Touat, pp.87, 88.

[٤] كعت: مصدر سابق، ص١٢٨؛ السعيدي: مصدر سابق، ص٢٣٨.

الاعتبار الثاني أن الرواية ذاتها تؤكد أن بني إسرائيل الذين سكنوا في موضع مدينة تندرمة تخصصوا في حفر الآبار والفلاحة، واشتهروا بزراعة نبات السلق الذي عرف إقبالاً شديدًا من طرف التجار[١]، ولم تشر الرواية إلى أن هؤلاء السكان شاركوا في النشاط التجاري عبر الصحراء، وإنما كانوا يبيعون محصول السلق إلى التجار، هذا بالإضافة إلى أن مدينة تندرمة لم تكن من ضمن مراكز أو محطات التجارة عبر الصحراء. والسؤال الآن: كيف يفسر سلوش تلك الإشارة على أنها دليل على تأسيس اليهود للإمبراطوريات، وتأسيس النظم الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي، ويدعي أن مؤلفات المؤرخين العرب والمسلمين أقرت بذلك!

٦- تفنيد مسألة الوجود اليهودي في ولاتة وفقًا لرواية الرحالة فرناندیز:

جاء **ڤالنتيم فرناندیز** وهو ألماني الأصل من مورافيا في مهمته بناء على تكليف ملك البرتغال **دوم مانويل** (٩٠١-٩٢٧هـ/١٤٩٥-١٥٢١م) بعد أن اعتمد عليه أيضًا في طباعة مراسيمه المعروفة "**بمراسيم مانويل**"، وذلك بفضل المطبعة المتنقلة وفن الطباعة التي أدخلها اليهود إلى البرتغال في عهد هذا الملك، الذي سعى لاستغلال الطباعة في الترويج لسياسته[٢].

على أي الأحوال فإن رواية فرناندیز حول وجود اليهود في ولاتة تعود إلى نهايات القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد. وحتى هذا التاريخ لم ترد أية إشارة بالمصادر حول وجود يهود في ولاتة، كما إن **ابن بطوطة** (المتوفى عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) الذي زار تلك المدينة في بدايات النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة، وسمَّاها إيولاتن، تحدث عن عناصر السكان الذين كان أغلبهم مسلمين من قبائل صنهاجة، بالإضافة إلى السكان المحليين من السودان، وتحدث أيضًا عن أوجه الأنشطة الاقتصادية بتلك المدينة وأهمها على الإطلاق استخراج الملح وتقطيعه وإعادة توزيعه، وكان من أهم سلع التجارة عبر الصحراء. ولم يتحدث ابن بطوطة مطلقًا عن أي وجود لليهود ولا لدورهم التجاري. أضف إلى ذلك أن مدينة ولاتة منذ تأسيس تنبكت في القرن الخامس للهجرة -أي قبل زيارة فرناندیز بما يزيد على أربعة قرون- وقد عرفت تراجعًا ملحوظًا كمحطة ومركز تجاري مهم، وأخذت تنبكت تحل محلها ليس على الصعيد التجاري وحده وإنما على الصعيد الثقافي أيضًا، وبقيت ولاتة مركزًا مهمًا لتوريد الملح إلى تنبكت وغيرها من المراكز التجارية. والدليل على ذلك ما كتبه الحسن الوزان عن ولاتة بعد عقدين فقط تقريبًا من رواية فرناندیز، فقد ذكر الوزان أنها مملكة

(1) Oliel, Jacob: les Juifs au Sahara le Touat, p.121.

(2) Spider, Brito: Pressen i Portugal i det 15. og 16. århundrede: Kong D. Manuel Ordinancer, National Press, Lissabon, 1898, p.6, Heitlinger, Paulo: Kunsten at trykke: pressens fremkomst i Portugal, Spanien, Typografi og design notesbøger, udgave 13, december 2008, p.37.

صغيرة وخاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، وأن التجار الذين كانوا يرتادونها هجروها إلى مدينتي تنبكت، وجاو؛ لأن أمير ولاتة نفسه أصبح فقيرًا، وأن أهلها يعيشون في بؤسٍ شديد[١]. وتلك الإشارة تؤكد أن ولاتة لم تكن ذي أهمية كبيرة في التجارة عبر الصحراء مقارنة بالمراكز والمحطات التجارية السودانية الأخرى وخاصة تنبكت، وجاو، وجني، فكيف يمكن الحديث عن دور تجاري مؤثر لليهود من واقع وجودهم في ولاتة، فضلاً عن غياب أية أدلة ملموسة تبرهن على سكنى اليهود لأي من المحطات التجارية المهمة!

يدعم هذا الاستنتاج أيضًا تلك الإشارة التي أوردها فرناندیز على لسان رودريجيز وهي أن منطقة **أرجوين** Arguin، ومقاطعة **لوديا** Lodéa المواجهة لجزيرة **أوليل** والممتدة جنوبًا حتى نهر السنغال[٢] لم تعرف أي وجود لليهود بين سكانها من العرب، إذ لم يكن مسموحًا بوجودهم[٣]. وهذا يؤكد انحسار الوجود اليهودي في ولاتة وعدم تمكنهم من الانتقال بين مدن السودان الغربي. كما إن استقرار اليهود هناك كان لفترة زمنية قصيرة بدليل عدم وجود أية إشارات تؤكد هذا الوجود قبل رواية فرناندیز أي قبل نهاية القرن التاسع للهجرة، كما إنه لا توجد إشارات تؤكد هذا الوجود مع نهاية العقد الأول من القرن العاشر للهجرة وقت زيارة الحسن الوزان الذي اهتم في مؤلفه بوصف أماكن استقرار اليهود وذكر تفاصيل حرفهم وصنائعهم في بلاد المغرب ولا سيما الصاغة اليهود[٤]. فهل يُعقل الحديث عن دور تجاري مؤثر وهيمنة لليهود على طرق التجارة عبر الصحراء

---

[١] وصف أفريقيا، ج٢، ص١٦٢.

[2] Robert-Chaleix, Denise: Sel, coquillages et jarosite: à propos de la saline médiévale d'Awlil, Journal des Africanistes, No. 61-2, Year 1991, p.180.

[3] Ba, Idrissa: Continuité ou discontinuité de la présence juive à Walâta, p.179.

[٤] أحصى الوزان أماكن وجود اليهود في البلاد التي مر بها، فتحدث عن وجود بعض الصاغة اليهود في بلاد المغرب في مدينة تدنست بإقليم حاحا، وأن معظم سكان تلك المدينة من اليهود، ولهم فيها مائة منزل ويملكون دار السكة. كما استقر عدد وافر من الصناع اليهود في مدينة أديكيس بإقليم حاحا، وعمل بعضهم في ضرب النقود الفضية. وشاهد الوزان عددًا كبيرًا من الصناع اليهود من الحدادين والإسكافيين والصباغين والصائغين في مدينة آيت داود. واستقر عدد من الصناع اليهود في مدينة تييوت إحدى مدن إقليم السوس. وفي مدينة تيدسي بنفس الإقليم عدد كبير من الصناع اليهود من الصاغة والحدادين. وسكن عدد كبير من الصناع اليهود أيضًا جبل هنتاتة. أما مدينة أسفي بناحية دكالة فكان بها عدد كبير من الصناع ونحو مائة دار لليهود. كما استقر عدد كبير من اليهود بمدينة هسكورة وكان بعضهم تجارًا والبعض الآخر صناع. وسكن عدد كبير من اليهود من الصناع والتجار في مدينة تفزة عاصمة تادلا وضمت نحو مائتي دار لليهود. وفي مدينة أفزا بإقليم تادلا أيضًا استقر عدد من اليهود الذين عملوا بالتجارة والفلاحة. وبنفس الإقليم مدينة آيت عياض التي سكنها عدد كبير من الصناع والتجار اليهود. وفي مدينة فاس سكن عدد من اليهود الذين عملوا غالبًا في حرفة الصياغة. ومع هذا الإحصاء الدقيق لم يتحدث الوزان مطلقًا عن أي وجود لليهود في بلاد السودان باستثناء إشارته حول معاداة ملك تنبكت

استنادًا لرواية تتحدث عن استقرار يهودي في مدينة سودانية لم تكن مركزًا تجاريًا مؤثرًا وقتذاك، لفترة لا تتجاوز العقدين من الزمان من عمر تجارة استمرت خلال العصر الإسلامي لمدة تزيد على التسعة قرون تقريبًا؟

٧- تفنيد الاستدلال بالأدلة الآثارية:

يكشف هذا الاستدلال مزيدًا من التدليس في الترويج للقضية، فإذا كان ناحوم سلوش ومن وافقه رأيه يحدثوننا عن آثار للمدن اليهودية في بلاد السودان، فإنهم لم يقدموا أي دليل على تلك الآثار، فكل أدلتهم انحصرت في الحديث عن آثار لقبور بعض الحاخامات ونقوش عبرية في إقليم توات بالمغرب الأوسط، وفي بعض الواحات الصحراوية مثل ميزاب وفجيج وتافيلالت. وتلك المسألة لا تحتاج حتى إلى أدلة آثارية فالمصادر التاريخية والفقهية أكدت الوجود اليهودي في تلك المواضع. والسؤال أين آثار اليهود في بلاد السودان؟

وفضلاً عن هذا فإن الحفائر الآثارية التي أجريت في كثير من مواقع المحطات والمراكز التجارية ببلاد السودان الغربي والتي بدأت منذ مطلع النصف الثاني من القرن العشرين لم تشر من قريب أو من بعيد إلى أي أثر لليهود أو دورهم، وإنما عبرت تعبيرًا واضحًا من خلال المكتشفات عن قيام التجارة عبر الصحراء على أكتاف التجار المسلمين الذين وصلوا إلى تلك المحطات والمراكز واستقراوا فيها[١].

٨- تفنيد الاستدلال بإحدى وثائق الجنيزة القاهرية:

يتضح من الرسالة التي عثر عليها ضمن وثائق الجنيزة والتي استدل بها يعقوب أوليئيل على دور اليهود في التجارة عبر الصحراء أنها تتعلق بمحطات التجارة الشمالية في بلدان المغرب الإسلامي وتحديدًا بين

لليهود. انظر: وصف أفريقيا، ج١، ص٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٥، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٤، ١٧٦، ١٨٣، ١٨٥، ٢٨٣.

[١] حول هذه المسألة يمكن الرجوع إلى بعض الدراسات التي اعتمدت على تقارير الحفائر الآثارية في غربي أفريقيا، ومنها، حسين مراد: دولة أودغست؛ بطل شعبان محمد: الصلات التجارية لمدينة جاو من خلال تقارير الحفائر الآثارية دراسة للفترة من القرن ٤-٦هـ/١٠-١٢م"، حولية كلية الآداب، جامعة بني سويف، المجلد التاسع، ج٢، ٢٠٢٠؛ محمد جاب الله علي: مدينة كومبي صالح ودورها الحضاري في ضوء تقارير الحفائر الآثارية من القرن الرابع حتى مطلع القرن السابع للهجرة، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية، المجلد٦، العدد١١، أكتوبر ٢٠٢١؛ بطل شعبان محمد: جوانب من تاريخ مملكة تادمكة في ضوء نتائج الحفائر الآثارية وشواهد القبور من منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن السادس للهجرة/٩-١٢م، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية ٤٣، الرسالة ٦٠٥، سبتمبر ٢٠٢٢.

توات ومراكش والفسطاط، وليس لها علاقة مطلقًا بالنشاط التجاري عبر الصحراء في محطاتها الجنوبية في بلاد السودان الغربي[١].

ورغم وجود بيانات محددة وموثقة عن الوجود اليهودي البارز ودورهم الموثق في جميع أنحاء بلاد المغرب الإسلامي من سجلماسة بالمغرب الأقصى عبر توات بالمغرب الأوسط، والقيروان ونفوسة بالمغرب الأدنى، بفضل ما ورد في المصادر التاريخية ووثائق الجنيزة القاهرية؛ فلا يوجد في تلك الوثائق ما يؤكد عبور اليهود إلى جنوب الصحراء وعملهم في النشاط التجاري هناك[٢].

وعلى سبيل المثال، توضح أجوبة وفتاوى الحاخامات "**The Responsa of Rabbis**" الوجود اليهودي ودور اليهود التجاري في مدن بسكرة وتقرت ومزاب وسجلماسة وتوات وهي مدن تقع ببلاد المغرب. وهذا يفسر كثرة ذكر معظم أماكن التجارة التي ارتادها اليهود في شمال الصحراء في وثائق الجنيزة خلال العصر الإسلامي. وهذا دفع **جويتاين Goitein** –الذي يعد أهم المختصين على مستوى العالم في تجميع وثائق الجنيزة وتحليلها– ليقول: "**بينما كان الذهب القادم من بلاد السودان مركزًا للاقتصاد بأكمله في فترة العصور الوسطى، فلا توجد وثائق جنيزة تعبر عن أي نشاط تجاري لليهود في بلاد السودان**"[٣]. ويقول أيضًا بمزيد من الدقة والوضوح" **لقد غذى الذهب السوداني اقتصاد العصر كله، ولكن ليس لدينا خطاب واحد من بلاد السودان ولا حتى تقرير عن رحلة تمت هناك**"[٤].

وبالرغم من أن سجلماسة تعد المحطة التجارية الأبعد في جنوب بلاد المغرب الأقصى والأقرب لبلاد السودان الغربي، ورغم تأكيد وثائق الجنيزة والمصادر التاريخية على الدور التجاري لليهود في سجلماسة إلا أنه لا يوجد ما يشير إلى وصول اليهود بعيدًا إلى الجنوب أي إلى المحطات والمراكز التجارية ببلاد السودان

---

(1) Oliel, J: Juifs au Sahara, Encyclopédie Berbère, pp.2,3, Goitein, S.D.: Letters of medieval Jewish traders, Princeton University Press, Princeton, 1973, pp. 58, 59.

تشير هذه الرسالة التي أرسلها إسحاق بن إبراهيم التواتي والمؤرخة بعام ١٢٣٥م إلى وجود تجارة قوافل تمر عبر توات، لتبادل الذهب والزعفران الأفريقي، وسبائك الفضة ... المرسلة من مراكش، مقابل اللؤلؤ والأوشحة والسجاد الشرقي المشحونة من الفسطاط (القاهرة). والرسالة غنية بالمعلومات عن تجارة القوافل بين مصر والمغرب عبر توات، ووقائع الطريق، والأسعار، ودور اليهود كوكلاء ووسطاء تجاريين، انظر:

Goitein, S.D.: Op.cit, pp. 58, 59.

(2) Boum, Aomar: Saharan Jewry: history, memory and imagined identity, The Journal of North African Studies, Vol. 16, No. 3, September 2011, p.329.

(3) Ibid, p.329.

(4) Goitein, S.D.: Op.cit, pp.23, 25.

الغربي[١]. يلاحظ جويتاين أن سجلماسة ذكرت مرارًا وتكرارًا في وثائق الجنيزة كمحطة للقوافل التجارية الشمالية العابرة للصحراء[٢]، ورغم هذا فلا يوجد أي دليل على وصول اليهود إلى بلاد السودان الغربي رفقة تلك القوافل.

أيضًا نلاحظ تتبع وثائق الجنيزة لدور اليهود التجاري في بعض المراكز والموانئ التجارية الواقعة في شرقي أفريقيا، وعلى الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، من ذلك تبادل التجار اليهود للتوابل في ميناء عيذاب على البحر الأحمر خلال القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد[٣]، كما تشير تلك الوثائق إلى تبادل التجار اليهود للبضائع في ميناء سواكن الواقع على البحر الأحمر إلى الجنوب من عيذاب[٤]. كما تبرز وثائق الجنيزة أيضًا وصول بعض التجار اليهود ببضائعهم وخاصة من المنسوجات إلى شرقي أفريقيا وتحديدًا إلى جزر دهلك في البحر الأحمر خلال القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد[٥]. وخلال الفترة نفسها وصل اليهود بتجارتهم إلى باضع[٦]. وقد ثبت هذا من خلال رسائل تبادلها التجار اليهود وحفظتها وثائق الجنيزة. وهو ما لم يحدث بالنسبة لبلاد السودان الغربي والتجارة العابرة الصحراء الكبرى.

وأخيرًا فقد ثبت من خلال وثائق الجنيزة اتجاه اليهود منذ النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة لممارسة نشاط تجاري كبير في بحر القُلْزُم (البحر الأحمر)، وبحر الهند (المحيط الهندي) للوصول إلى الهند عبر عدن والإسكندرية، وكان لهذا الاتجاه ما يبرره، بحكم الأخطار والصعوبات التي عانت منها التجارة البرية العابرة للصحراء، واضطراب التجارة البحرية في بحر الروم (البحر المتوسط)، كل ذلك دفع اليهود لممارسة نشاطهم التجاري بين الأندلس والمغرب وعدن ومصر والهند[٧].

---

(1) Hirschberg, H.Z.: A history of the Jews of North Africa, Leiden, Brill, 1974. vol. 2, p.125, Boum, Aomar: Op.cit, p.330.

(2) Goitein, S.D.: Op.cit, p.23.

(3) Goitein & Akiva Friedman, Mordechai: India Traders of the Middle Ages Documents from the Cairo Geniza, Brill, Leiden, Boston,2008, pp.45, 157, 368, 451, 525, 719.

(4) Ibid, p.258, Goitein: Letters of medieval Jewish traders, p.210.

(5) Goitein & Akiva Friedman, Mordechai: India Traders of the Middle Ages, pp.33, 172-186, 357, 358, Goitein, S.D.: Letters of medieval Jewish traders, p.210.

(6) Goitein & Akiva Friedman, Mordechai: India Traders of the Middle Ages, pp.258- 261.

(7) Goitein: Letters of medieval Jewish traders, pp.23, 25, 27, 167, 232, 261.

قاسم عبده: مرجع سابق، ص١٠٥، ١٠٦؛ لطفي بن ميلاد: المغاربة وتجارة الهند من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي والصين (نهاية القرن ٥هـ/١١م إلى نهاية القرن ٩هـ/١٥م): Annales Islamologiques, AnIsl 51, (2018), p.227

٩- تفنيد الاستدلال بالنصوص الحاخامية:

فيما يتعلق بسؤال بعض التجار اليهود لإسحاق برشيشت حول إمكانية المسير بالقافلة يوم السبت، فهذه المسألة تؤكد سفر التجار اليهود على الجمال؛ لكن هذا لا يعني بالضرورة أنهم كانوا يعبرون الصحراء جنوبًا حتى بلاد السودان الغربي[١]. ولا يعني أيضًا أن القوافل المقصودة في الاستفسار هي القوافل المتجهة نحو تلك البلاد، فكانت هناك طرق تجارية تقطعها القوافل بين المحطات التجارية الصحراوية جنوبي بلاد المغرب، ومن ذلك الطرق التي مرت بها القوافل بين محطات المغرب الأوسط محل الاستفسار وبين المحطات المغربية الأخرى، ومنها الطريق الذي كانت تسلكه القوافل بين تلمسان وسجلماسة مرورًا بمحطات فاس وصفروي وتادلة وأغمات[٢].

وعبر هذه الطرق ارتبط يهود توات بعلاقات تجارية واسعة مع يهود تلمسان وسجلماسة ووهران[٣]، وفي ضوء عدم وجود أدلة على مشاركة اليهود في القوافل التجارية المتجهة نحو بلاد السودان، فمن المؤكد أن المجال التجاري وانطلاق القوافل الذي دار حوله السؤال كان يتعلق بتنقل اليهود بين المحطات الصحراوية في الجنوب المغربي، وليس نحو بلاد السودان الغربي التي كانت قيادة القوافل المنطلقة نحوها بأيدي التجار المغاربة المسلمين، وليس اليهود؛ لذا فليس هناك ما يدعو لطرح مثل هذا السؤال بالنسبة للتجارة عبر الصحراء.

١٠- تفنيد الاستدلال برواية الوزان:

رغم تهافت المؤيدين للدور التجاري لليهود في بلاد السودان على رواية الوزان، فعلى النقيض من ذلك، لا تفصح تلك الرواية مطلقًا عن وجود دور تجاري مؤثر لليهود في مملكة صُنغي الإسلامية التي كان بيدها مقاليد الحكم ببلاد السودان الغربي وقت زيارة الوزان[٤]. فالرواية تشير إلى أن الأسكيا محمد الأول ملك صنغي حظر على اليهود سُكنى بلاده ومنع أي تعامل تجاري معهم، وكان ذلك بناء على طلب المغيلي أثناء وجوده في مدينة جاو؛ إذ تلقى خبر مقتل ابنه على أيدي الجالية اليهودية في مدينة توات بالمغرب الأوسط؛

---

(1) Michienzi, Ingrid Houssaye: De l'île de Majorque au désert du Sahara: réseaux de commerce Juifs et trafic du cuivre vers 1400 from the island of Majorca to the Sahara: Jewish networks and copper trade around 1400, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 146, 2019, p.12.

(٢) الإدريسي: مصدر سابق، ص١٧٤.

(٣) محمد أرحو: دور يهود الجنوب المغربي في تجارة القوافل الصحراوية، مجلة الاجتهاد، العدد ٣٤- ٣٥، السنة ٩، شتاء وربيع عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ٩٦.

Hunwick, John: Al-Mahîlî and the Jews of Tuwât : The Demise of a Community, Studia Islamica, No. 61, (1985), p.164

(4) BA, Idrissa: La problématique de la présence juive au Sahara et au Soudan, pp.262, 263.

وهذا يفسر طلب المغيلي من الأسكيا اعتقال أهل توات الذين كانوا في جاو في هذا الوقت، لكن تدخل **القاضي محمود بن عمر أقيت**[١] (المتوفى عام ٩٥٥هـ/١٥٨٣م)، وطلب بإطلاق سراحهم لأنهم ليس لهم ذنب[٢]. فليس ثمة دليل على أن الأسكيا قام بطرد اليهود، فمن المعلوم وفقًا للمصادر أن الجالية التواتية التي استقرت ببلاد السودان الغربي كانت مُسلمة. ومن المعلوم أيضًا أن المغيلي خاض حربًا شرسة ضد اليهود في مدينة توات نتيجة فسادهم وما أحدثوه في بلدٍ مسلم، كما إنه كان يطالب بعدم التعامل معهم، وهدم كنيسهم[٣]، ووجه نقدًا شديدًا لكل من تعامل معهم من مسلمي توات[٤]، وهذا يرجح أن طلب المغيلي من الأسكيا كان يتعلق بتجار توات المسلمين المقيمين في مملكة صُنغي، اعتراضًا منه على استكانتهم وتعاملهم مع يهود توات رغم فسادهم؛ فمن المرجح أن يهود توات كانوا يمولون التجار المسلمين المتجهين لبلاد السودان الغربي. يدعم هذا الاستنتاج اعتراض قاضي تنبكت محمود بن عمر على حادثة القبض على أهل توات، لأنهم لم يكن لهم أي ذنبٍ في مقتل ابن الشيخ المغيلي. وهذا دفع هونويك للاعتقاد بأن التواتيين الذين تم توقيفهم في تنبكت كانوا مسلمين ويهودًا[٥].

في ضوء ما سبق انتهى **إدريسا با Idrissa BA** إلى القول بأن البعض استند إلى رواية الحسن الوزان في إثبات استقرار اليهود في بلاد السودان الغربي ودورهم المؤثر في التجارة عبر الصحراء، ولكن من خلال

---

[١] هو قاضي الجماعة في مملكة صُنغي، وعالم التكرور وإمامها وفقيهها بلا منازع، ولد عام ٨٦٨هـ/١٤٦٣م، ذاع علمه وصلاحه في البلاد، ولي القضاء في مدينة تنبكت عام ٩٠٤هـ/١٤٩٤م، وكان عدلاً في قضائه، ولازم التدريس نحو خمسين عامًا، وكثر طلابه، توفي عام ٩٥٥هـ/١٥٨٣م، السعيدي: مصدر سابق، ص ١٦٠.

[2] BA, Idrissa: La problématique de la présence juive au Sahara et au Soudan, pp.262, 263, Lugard, Flowra Shaw: A Tropical dependency an outline of the ancient history of the Western Soudan with an account of the modern settlement of Northern Nigeria, London, 1905, p.202, Blum, Charlotte & Fisher, Humphrey: Love for three oranges, or, the Askiya's dilemma: The Askiya, al-Maghīlī and Timbuktu, c. 1500 A.D., The Journal of African History, Vol. 34, No. 1 (1993), p.75.

[٣] تأثر المغيلي بشكلٍ كبير بالأحداث السياسية في دار الإسلام في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، خاصة فقدان الأندلس وخروج المسلمين منها، وأيضًا النشاط الاقتصادي المخالف للشريعة الإسلامية لليهود في بلاد المغرب الإسلامي، ولذلك نجد آراءه تدعو إلى عدم التهاون في التعامل مع أهل الذمة، ومع الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين على خلفية ما حدث للمسلمين في الأندلس. انظر:

Hunwick, John: Al-Mahîlî and the Jews of Tuwât, p. 160.

[٤] المغيلي: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٦٨، ص ١٨؛ أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ج٢، ص ٢٦٤، ٢٦٨.

[5] Hunwick: Sharī'a in Songhay, p.42, Hunwick: Al-Mahîlî and the Jews of Tuwât, p.180.

النظر في إشارات الوزان، وبالنظر في المصادر المحلية السودانية تبقى مسألة توغل التجار اليهود في بلاد السودان مجرد افتراض لا تدعمه الأدلة[١].

كما إن الوزان لا يشير مطلقًا لأي وجود يهودي في مدينة تنبكت أو حتى في أي مكان آخر في بلاد السودان الغربي، رغم معرفته بتلك البلاد جيدًا ولا سيما تنبكت التي زارها مرتين. ويتأكد ذلك من خلال الرجوع إلى المخطوطة الأصلية لكتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان والتي كتبت باللغة الإيطالية فالنص المتعلق باليهود جاء فيه:

"**إن ملك تمبكتو عدو لدود لليهود، لذلك لا يوجد يهودي في المنطقة المذكورة وما وراء ذلك، وعندما يعلم الملك أن أي من تجار البربر يتردد على اليهود، أو يتاجر معهم، أو يتاجر بدينارهم (أموالهم)، تصادر السلطة جميع بضاعته التي تخصه (ثم تودع) في الغرفة الملكية، وبالكاد يترك له دينار يكفيه فقط ليعود إلى بيته**"[٢]. وهذا يؤكد عدم وجود اليهود في بلاد السودان الغربي وقت زيارة الوزان لها في بدايات القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، ويرجح أن الأسكيا تأثر بالخلاف الذي دار بين المغيلي ويهود توات.

يظهر مما سبق تزييف وتدليس الزاعمين بوجود اليهود في بلاد السودان الغربي ودورهم في التجارة عبر الصحراء، ومجانبة أدلتهم للواقع التاريخي، ووهن تلك الأدلة، وتحميلها للنصوص أكثر مما تحتمل وتوجيهها عن عمد في كثير من الأحيان لتزكية تلك الأطروحة.

ثالثًا– موقف بعض المؤرخين الغربيين من مزاعم الدور اليهودي في التجارة عبر الصحراء :

لقد أدى ضعف أدلة المروجين لدور اليهود التجاري في بلاد السودان الغربي إلى رفض عدد من المؤرخين والباحثين الغربيين لتلك الأطروحة، لكنهم رفضوها على استحياء دون مناقشة للأدلة، واكتفوا بإطلاق بعض العبارات المقتضبة للتعبير عن آرائهم.

ويعد المؤرخ وعالم الآثار الفرنسي **ريموند موني Raymond Mauny** أول من أعلن عن رفضه للأطروحة عام ١٩٤٩، في مقالة عنوانها: "**اليهودية واليهود في غرب أفريقيا Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale**" فقد استبعد وصول هجرات يهودية؛ لأن المصادر الإسلامية التي أرخت لبلاد السودان الغربي لم تذكر شيئًا عن الوجود أو الدور التجاري اليهودي في بلاد السودان الغربي[٣].

(1) BA, Idrissa: La problématique de la présence juive au Sahara et au Soudan, pp.265, 266.
(2) Ibid, pp.258, 259.
(3) Mauny, Raymond: Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale, pp. 262, 263, Mauny, Raymond: Tableau géographique, p.460.

ويؤكد موني أيضًا في خضم اهتمامه بجمع النقوش في الصحراء وبلاد السودان أنه لا توجد أية نقوش تعبر عن وجود يهودي في تلك البلاد(١).

ويُقر **ألبرت لريتش Albert Leriche** –أحد المسئولين الاستعماريين الفرنسيين في موريتانيا- بأن استقرار اليهود ودورهم في بلاد السودان الغربي لا ينسجم مع المكونات التاريخية والبشرية للمنطقة بوجهٍ عام ولا يوجد أي تراث أو تقاليد تعبر عنه، يؤكد ذلك غياب الكتابات العبرية في المؤلفات المحلية السودانية(٢).

ويعد المؤرخ اليهودي الألماني **شلومو دوف جويتاين Shelomo Dov Goitein** أبرز الرافضين للأطروحة، فقد أكد بعد انتهائه من جمع وثائق الجنيزة القاهرية أنه لا توجد أي وثيقة من تلك الوثائق تبرهن على وصول التجار اليهود لبلاد السودان الغربي، رغم أن الذهب السوداني غذي اقتصاد العالم الوسيط كله(٣).

وبناءً على تقييم جويتاين لوقائع التجارة عبر الصحراء استنادًا إلى وثائق الجنيزة، استنتج المؤرخ اليهودي الإسرائيلي **نحميا ليفتسيون Nehmeia Levtzion** المتخصص في تاريخ الإسلام في بلاد السودان الغربي والرئيس الأسبق للجامعة المفتوحة في إسرائيل، أن التجار اليهود لم يكونوا قادرين على تجاوز الحد الشمالي من أطراف الصحراء، بدليل غياب الشبكات اليهودية القوية القائمة على القرابة والعلاقات الدينية بين الأطراف الجنوبية والشمالية للصحراء. ورغم ذلك كان بإمكان اليهود الحصول على الكثير من سلع التجارة القادمة من بلاد السودان وإعادة توزيعها بين المراكز التجارية المغربية الواقعة على أطراف الصحراء، وساحل البحر المتوسط، بينما تمكن التجار العرب والبربر المغاربة من الوصول إلى مراكز الأسواق التجارية في الجنوب، مثل تنبكت، وولاتة، وأودغست، وجاو(٤).

كما إن المؤرخ البريطاني الشهير **جون هونويك John Hunwick** المتخصص أيضًا في تاريخ الإسلام في بلاد السودان الغربي، رفض تأييد الرأي القائل بوجود دور يهودي كبير في التجارة عبر الصحراء، وانتهى إلى القول بأن اليهود تمركزوا فقط في المحطات الشمالية ببلاد المغرب، بينما وصل عدد محدود منهم إلى الحافة السودانية للصحراء وخاصة مدينة ولاتة(٥).

(1) Mauny, Raymond: Tableau géographique, p.50.
(2) Leriche, Albert: Op.cit, p.738.
(3) Goitein, S.D.: Letters of medieval Jewish traders, pp.23, 25, Boum, Aomar: Op.cit, p.329.
(4) Levtzion, Nehemia: The Jews of Sijilmasa and the Saharan trade. In: Abitbol, M. (ed): Communautes Juives des marges Sahariennes du Maghreb, Institut Ben-Zvi, Je´rusalem, 1982, p.255, Boum, Aomar: Op.cit, pp.326, 331.
(5) Hunwick, John: Al-Mahîlî and the Jews of Tuwât, pp.162, 163.

بعد تفنيد أدلة المروجين للأطروحة، وعرض موقف بعض المؤرخين الغربيين منها؛ يتبادر إلينا سؤال مهم: ما هي حدود مشاركة اليهود في التجارة عبر الصحراء؟

رابعًا– حدود مشاركة اليهود في النشاط التجاري ببلاد السودان الغربي:

نسجل بداية أنه لم يكن اليهود بحاجة إلى اختراق الصحراء ومعاناة مشاق الرحلة عبرها وما كان يعتريها من مخاطر جمة بدافع تحقيق المكاسب الاقتصادية، فقد حقق اليهود ثروات كبيرة من خلال تمركزهم في أهم مناطق العبور من بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي، بفضل استقرار أقليات منهم في مدن فاس، ومراكش، وأغمات، وسوس، وسجلماسة، وتادلة، ودرعة، وتلمسان، وتونس، مرورًا بواحات توات وتيديكلت(١). كما إن التجار اليهود "**الراذانية**" اختاروا منطقة سوس كمحطة لترويج بضائعهم عبر العالم منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي(٢).

ومن خلال وجود اليهود في أهم المحطات الشمالية للتجارة عبر الصحراء تمكنوا من تحقيق مكاسب اقتصادية كبيرة وتراكمت الثروة بأيديهم، وأصبحوا يقرضون بالفوائد "الربا" بعض التجار الذين شاركوا في تجارة القوافل العابرة للصحراء نحو بلاد السودان(٣). وهذا يعني أنهم وظفوا أموالهم في تلك التجارة، مستفيدين من تمركزهم في المدن والمحطات المغربية التي كان توجهها تجاريًا بالدرجة الأولى، ولم تكن تلك المحطات تمثل أهمية للتجارة عبر الصحراء مع بلاد السودان فقط، وإنما كانت امتدادًا للتجارة المتوسطية مع أوروبا(٤).

وهكذا كان وجود الجاليات اليهودية ومشاركتها في التجارة عبر الصحراء قائمًا على المنطق المزدوج للتجارة المتوسطية والتجارة عبر الصحراء، فسلع التجارة عبر الصحراء لم يكن منتهاها في بلدان المغرب الإسلامي وبعض بلدان المشرق وخاصة مصر، فكان اليهود هم همزة الوصل بين السلع القادمة عبر الصحراء وسلع بلدان البحر المتوسط، وخاصة أوروبا(٥). وبفضل هذا الدور كوسطاء تجاريين؛ أصبح اليهود على درجة كبيرة من الثراء(٦).

---

(١) اليعقوبي: مصدر سابق، ص٣٦٠؛ البكري: مصدر سابق، ج٢، ص ٥٥٦، ٨٣٦؛ بشير: مرجع سابق، ص١٠٣.

(٢) محمد أرحو: مرجع سابق، ص ٩٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٥.

(4) BA, Idrissa: La problématique de la présence juive au Sahara et au Soudan, p.250.

(5) Ibid, p.251.

(٦) انظر الوزان: مصدر سابق، ج١، ص٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٥، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٤، ١٧٦، ١٨٣، ١٨٥، ٢٨٣.

Boum, Aomar: Op.cit, p.326.

يدعم هذا الاستنتاج أيضًا أن اليهود المقيمين بمصر خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، شاركوا في تمويل التجار المسلمين المغاربة الذين كانوا يسافرون عبر الصحراء إلى بلاد السودان الغربي لجلب التبر، واحتكروا جلب تراب التبر من تنبكت وكانو. وتشهد الوثائق على أن اليهود كانوا أبرز مشترٍ للتبر سواء لعمل الحلي أم لتوريده لدار الضرب(١).

كما إن المراسلات التي عثر عليها وترجع للقرنين الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، وتخص إحدى الشركات التجارية الأوروبية الكبرى التي كان يملكها تاجر إيطالي يدعى **فرانشيسكو دي ماركو داتيني Francesco di Marco Datini**، تؤكد أن نشاط اليهود في التجارة عبر الصحراء تمثل في لعب دور الوساطة لنقل سلع هذه التجارة إلى أوروبا، وأقصى نقطة وصل إليها اليهود كانت توات وفقًا لتلك المراسلات(٢)، وكانت لهم صلات مع تجار ميورقة وجنوة وفلورنسا(٣) عبر محور ميورقة –هنين–توات(٤).

وتبين مراسلات تجار ميورقة وجود صلة بين التجار اليهود والتجار المسلمين الذين تولوا مسئولية نقل البضائع إلى بلاد السودان الغربي جنوبًا، إذ كان اليهود يسلمون بضائعهم للتجار المسلمين القادمين من بلاد السودان للمتاجرة فيها. والدليل على ذلك أنه عندما أصدر قنصل ميورقة في تلمسان أمرًا لجميع تجار ميورقة من اليهود والنصارى بمغادرة تلمسان في عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م على أن تتم المغادرة في غضون أربعة أشهر، سارع تجار ميورقة بإرسال طلب إلى **دومينو فيليبو Domino Filipo** الوصي على عرش ميورقة؛ للسماح بعدم تنفيذ مهلة الأربعة أشهر لكي يتمكنوا من إتمام صفقاتهم التجارية انتظارًا لعودة التجار المسلمين من بلاد السودان، وبالفعل وصلت التعليمات للقنصل الميورقي الذي سمح لهؤلاء التجار بالبقاء حتى إتمام عملياتهم التجارية مع التجار المسلمين(٥).

---

(١) حسام عبد المعطي: العائلة والثروة البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٣٠٢.

على سبيل المثال؛ تشير الوثائق عن قيام أحد اليهود في عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م، ويدعى المعلم موسى بن إبراهيم كوهان بإمداد التاجر المغربي أحمد بن علي بن أبي بكر الشهير بابن مؤمن بكميات من الأقمشة، واشترط عليه أن يسددها ثلاثمائة مثقال من تراب الذهب. وبالإضافة إلى التمويل استفاد التجار المغاربة من معرفة عدد كبير من التجار اليهود باللغات الأوروبية، فأصبحوا وسطاء تجاريين بين التجار المغاربة والأوروبيين. انظر: حسام عبد المعطي: مرجع سابق، ص٣٠٢؛ محسن شومان: اليهود في مصر العثمانية حتى القرن التاسع عشر، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ج١، ص١٩٢.

(2) Michienzi, Ingrid Houssaye: Op.cit, p.6.
(3) Ibid, pp.1,2.
(4) Ibid, p.4.
(5) Ibid, p.12.

واستفاد الزيانيون (٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٥-١٥٥٤م) حكام المغرب الأوسط من دور اليهود في النشاط التجاري مع أوروبا، ونجح هؤلاء اليهود في مد أواصر العلاقات التجارية للمغرب الأوسط مع شبه الجزيرة الأيبيرية، وخاصة مع ملك أراغون جاك الملقب بالفاتح (٦٠٥-٦٧٥هـ/١٢٠٨-١٢٧٦م)، الذي كان على علاقة مضطربة مع الزيانيين، لكنه سمح ليهود تلمسان بالتجارة في بلاده وعدم عرقلة نشاطهم وكان ذلك عام ٦٧٢هـ/١٢٧٤م[١].

وأسهم يهود سجلماسة خلال العصر المريني (٦٦٨-٨٦٩هـ/١٢٦٩-١٤٦٥م) بدور مهم في ربط تجارة سجلماسة المحطة الشمالية المهمة للتجارة عبر الصحراء بتجارة أوروبا اعتمادًا على علاقتهم بيهود تلمسان وميورقة وبرشلونة. وكان ليهود سجلماسة أيضًا علاقات تجارية مهمة مع مملكة أراغون[٢].

ويجب أن نأخذ في اعتبارنا أيضًا مسألة مهمة، وهي أن المصادر الإسلامية جغرافية وتاريخية شكلت مصدرنا الأساسي للتعرف على هذا الاستقرار اليهودي في المدن والمراكز التجارية ببلاد المغرب، وكذا دورهم التجاري هناك، وأنه متى لوحظ أي دور تجاري لليهود في تلك البلاد فإن تلك المصادر لم تكن تتوان عن الإفصاح عنه وتبيانه، حتى إن **الرقيق القيرواني** (المتوفى حوالي سنة ٤٢٤هـ/١٠٣٤م) يفصح عن النشاط التجاري لليهود في المغرب الأدنى وخاصة في القيروان التي كان لهم فيها سوقًا عُرف باسمهم "**سوق اليهود**"[٣]. كما إن المصادر ذاتها هي التي دلتنا على النشاط التجاري بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، ولم تتحدث مطلقًا عن أي دور تجاري لليهود في بلاد السودان الغربي، وإنما تأكد من خلال تلك المصادر احتكار التجار المسلمين للتجارة مع تلك بلاد. وهنا نسجل اعترافًا مهمًا لأحد أبرز مؤيدي أطروحة دور اليهود في التجارة عبر الصحراء ألا وهو **أبيتبول** الذي أشار إلى أن التجارة عبر الصحراء لم تعرف ازدهارها وذروة نشاطها إلا بعد اكتمال الفتح العربي للمغرب في القرن الأول الهجري[٤]. وهذا يعني أن هذه التجارة قامت على أكتاف التجار المسلمين، وأنهم كانوا العنصر المحرك لها والمؤثر فيها.

وفضلاً عما سبق غاب الحديث عن دور اليهود التجاري في بلاد السودان الغربي في المصادر المحلية السودانية التي أبرزت دور التجار المسلمين هناك. وثمة سؤال يطرح نفسه: هل كان غياب الحديث عن اليهود

---

[١] عمر سعيدان: علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر م، منشورات سعيدان، سوسة، تونس، ٢٠٠٢، ص٣٨.

[٢] حسن حافظي علوي: سجلماسة وإقليمها في القرن ٨هـ/١٤م، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٩٧، ص ١٤٩، ١٥٠.

[٣] فتح إفريقية والمغرب، حققه المنجي الكعبي، تونس، د.ت، ص١٦٧.

[4] Abitbol, Michel: Op.cit, p.178.

ودورهم التجاري في المصادر المحلية السودانية يعبر عن إخفاء متعمد للحديث عن هذا الموضوع؛ على افتراض أنه كان يمثل حساسية لدى السودانيين؟

بالرجوع إلى المصادر السودانية يتضح أن المؤلفين السودانيين لم يتعمدوا أبدًا التعتيم، ولم تعكس كتاباتهم أي نوعٍ من التوتر تجاه الآخر الوافد سواء كان هذا الوافد قادمًا في ركاب القوافل التجارية العابرة للصحراء أو كان يأتي على ظهر السفن القادمة من أوروبا والراسية على شواطئ الأطلنطي. بل إن النصوص المحلية لا تطرح أية مؤشرات تدل على حضور "الأنا السودانية" في مقابل "الآخر المسلم" أو الآخر القادم من أي جهة كانت. وقدم السودانيون نموذجًا خلاقًا في التفاعل مع الآخر(١).

في ضوء ما سبق يتأكد لنا أن تمركز اليهود في المحطات الشمالية الواقعة في بلاد المغرب وتحقيقهم مكاسب جمة قد أغناهم عن التفكير في مرافقة القوافل التجارية نحو بلاد السودان.

ولم يقف دور اليهود واستفادتهم من النشاط التجاري في بلاد المغرب عند حد لعب دور الوساطة التجارية فقط، وإنما استفادوا أيضًا من احتكار أهم الحرف التي ارتبطت بالنشاط التجاري عبر الصحراء، ونقصد بذلك حرفة صياغة المجوهرات، فقد اشتهر الصاغة اليهود بحذوق وذوق ظلا معروفين منذ عدة قرون(٢). ويعد احتكار اليهود لتلك الحرفة أحد أسباب الترحيب بهم واستقرارهم في كثير من بلدان العالم الإسلامي(٣)؛ فلم تكن هذه الحرفة تخلُ من التعامل الربوي، ولهذا أصبحت مجالاً احتكره اليهود(٤)، وبالتالي استفاد الحرفيون اليهود من القيود التي فرضتها الشريعة الإسلامية على الأرباح من المعادن النفيسة، فاحتكروا عمليًا صياغة الذهب والفضة(٥).

تلك هي حدود الدور اليهودي في التجارة عبر الصحراء، ذلك الدور الذي لم يتجاوز الحدود الجنوبية لبلاد المغرب الإسلامي، لكن عددًا من الباحثين اليهود والغربيين قرروا توظيف أقلامهم للترويج لمزاعم

---

(١) أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م (نموذج بلاد السودان)، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، ٢٠١٠، ص ٣٥٤-٣٥٥، ٣٦١.

(٢) ابن عسكر: دوحة الناشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، ١٩٩٧، ص٧٧؛ محمد أرحو: مرجع سابق، ص ٩٦.

(3) Prussin, Labelle: Op.cit, pp.337, 338.

(٤) انظر، الحسن الوزان: مصدر سابق، ج١، ص٢٨٣؛ محمد أرحو: مرجع سابق، ص ٩٧.

أرجع البعض سبب عمل اليهود في صياغة الذهب والفضة إلى حرصهم على أن تكون المعادن الثمينة بأيديهم أو بأيدي أقرانهم؛ حتى تكون في مأمن، بدلاً من إيداعها لدى جماعات أكثر منهم قوة، وحتى يتمكنوا من استعادتها من ذويهم أو طائفتهم بسهولة. جواتياين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، الكويت، ١٩٨٠، ص١٦٩؛ عبد الرحمن بشير: مرجع سابق، ص٩٣.

(5) Hunwick, John: Al-Mahîlî and the Jews of Tuwât, pp.162, 163.

وصول التجار اليهود إلى بلاد السودان ووصلت استنتاجاتهم حد الشطط كما رأينا، فقد ذهب بعضهم إلى القول باحتكار اليهود للنشاط التجاري مع بلاد السودان الغربي وأن الطريق التجاري الغربي الرابط بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي كان يطلق عليه اسم "**الطريق اليهودي**"[١]. كما إن أحدهم –في محاولة يائسة أمام ضعف الأدلة على دور اليهود في بلاد السودان الغربي– انتهى إلى قول عجيب بأن "**العديد من القبائل في الصحراء والسودان مسلمون في الدين لكنهم عبريون في الجنسية، وهم يسيطرون على الطرق التجارية الرابطة بين بلاد المغرب وبلاد السودان في الجنوب: إنهم غير يهود بالدين لكنهم على دراية بأصلهم العبري وهم ودودين للغاية مع التجار اليهود**"[٢].

وتبرهن مثل هذه المزاعم على خطورة القضية المطروحة، وأنها ليست مجرد استنتاج خاطئ وإنما متعمد عند غالبية المؤيدين لتلك الأطروحة.

خاتمة:

تبين من خلال البحث أن الحديث عن دور اليهود في التجارة عبر الصحراء لا سيما في المحطات التجارية في بلاد السودان الغربي مجرد ادعاء، ولا يمت للحقيقة التاريخية بأي صلة، وقد ثبت ذلك بوضوح وفق عدة براهين، من أهمها:

أن المصادر الإسلامية تاريخية وجغرافية وكتب رحلات، وتراجم وطبقات، بالإضافة إلى المصادر المحلية السودانية لم تشر مطلقًا إلى مشاركة اليهود في التجارة من خلال عبورهم للصحراء، وأوضحت تلك المصادر بكل دقة كيف وصل التجار المسلمون، ولا سيما المغاربة، إلى بلاد السودان الغربي، ووصفت قوافلهم والطرق التي مروا بها، والمحطات التجارية التي انتهوا إليها، والسلع التي حملوها لتلك البلاد، والسلع التي نقلوها منها.

ثم جاءت تقارير الحفائر التي أجريت مؤخرًا بواسطة علماء آثار غربيين لتؤكد صحة ما ورد في تلك المصادر وأكدت ريادة التجار المسلمين وتفوقهم دون منافس في الوصول لتلك البلاد.

وفضلاً عن ذلك، أكدت الدراسة أن المصادر ذاتها سجلت بكل موضوعية ودون أي غضاضة؛ استقرار اليهود وأدوارهم وجوانب حياتهم شتى ببلدان العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، فما الذي يحمل مؤلفيها إذًا على

(1) De La Roncière, Charles: La dècouverte de L'Afrique au Moyen-Âge, cartographes et explorateurs, Sociètè Royale de Gèographie d'Egypte, Cairo, 1924-27, vol.1, p.102; Prussin, Labelle: Op.cit, p.350; Baron, Salo: A Social and religious history of the Jews, Schocken Books, New York, 1957-58, vol. 17, p.288.
(2) Windsor, Rudolph: Op.cit, p.120.

إغفال دورهم ببلاد السودان الغربي؟ كما إن وثائق الجنيزة التي سجلت كل المناطق التي وصل إليها اليهود بتجارتهم وبضائعهم، لم تسجل وثيقة واحدة منها وصول التجار اليهود لبلاد السودان الغربي رفقة القوافل العابرة للصحراء الكبرى.

كشفت الدراسة عن أن أكثر المتحمسين للترويج لمزاعم دور اليهود في التجارة عبر الصحراء كانوا يهودًا وبعضهم كانوا مسئولين استعماريين، حاولوا بشتى السبل إنكار كل فضل للمسلمين على الحضارة الأفريقية، بل إنهم شككوا أساسًا في وجود حضارة أفريقية قبل عهد الاستعمار الذي زعموا بأنه عهد التنوير والتحضر في القارة، وحينما جوبهت كتاباتهم العنصرية تلك بنقدٍ شديد، لجأوا لحيلة أخرى وهي الزعم بأن الحضارة الأفريقية حضارة دخيلة ليست من صُنع الأفارقة، وأن الفضل فيها ليس للمسلمين وحدهم بل إن اليهود كان لهم فضل كبير في هذا المضمار من خلال مزاعم استقرارهم في السودان الغربي والتي نفاها البحث الموضوعي.

وثبت من خلال تتبع مراحل تشكيل الرأي القائل بدور اليهود في التجارة عبر الصحراء أنها ادعاءات يهودية جديدة، وُظفت لخدمتها أقلام لتروج لها، وحاول المشاركون في الترويج لتلك الادعاءات السعي بشتى السُبل للتدليس وتزييف الوقائع، وتفسير النصوص على هواهم، بل إنهم التفوا على بعض النصوص ونسبوا لأصحابها زورًا ما لم تنطق به مؤلفاتهم من قبيل أن الطريق الغربي للتجارة عبر الصحراء كان يُسمى "الطريق اليهودي"، وأن اليهود أمسكوا بزمام تلك التجارة، بل وبالغ بعض المدلسين بقوله "إن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين ينسبون لليهود تأسيس أولى الإمبراطوريات والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي". وذهب البعض إلى أن مسلمي السودان الغربي كانوا "مسلمين في المعتقد، لكنهم يهود في هويتهم"، وأنهم أسلموا تحت ضغط الانتشار الثقافي للمسلمين.

وأخيرًا أكدت الدراسة أن اليهود لم يكن لهم دور يُذكر في عبور الصحراء الكبرى للتجارة؛ لعدة اعتبارات، منها مخاطر الرحلة عبر الصحراء ومشاقها، وأن اليهود كان بمقدورهم تحقيق الكثير من المكاسب الاقتصادية من خلال استقرارهم في المحطات التجارية ببلاد المغرب الإسلامي والتي اشتهرت بصلاتها مع المراكز التجارية ببلاد السودان الغربي، فاضطلع اليهود بدور مهم حققوا من خلاله مكاسب مالية كثيرة، منها توسطهم في نقل السلع بين بلاد المغرب وأوروبا، بالإضافة إلى تمرسهم في بعض الحرف بالغة الأهمية واحتكارهم لها مثل صياغة الذهب في بلاد المغرب، وتلك هي حدود استفادتهم من التجارة عبر الصحراء.

لكل ما سبق؛ فقد حان الوقت للتخلص من أكذوبة الدور التجاري لليهود من خلال عبورهم الصحراء واستقرارهم في المحطات الجنوبية الواقعة في بلاد السودان الغربي.